الفصل الثاني

الحجاج والارتباك السياسي
في عهد معاوية وعَهْدِهِ

obeikandl.com

obeikandl.com

الحجاج

ليس الحجاج فى الواقع حديثاً ليناً هيناً، ولا هو من الذين ينطوي اسمهم في التاريخ فلا يثير ضجة، ولا يستدعي خصومة مستمرة، قد تنتهي إلى شيء من العنف ليس بقليل.

رجل في الواقع شغل الناس في عصره، وشغلهم بعد عصره، وما يبرح الناس يختصمون في أمره، ويلجون في هذه الخصومة، ذلك أن للحجاج من يناصره ويؤيده، وله من ينتقده انتقاداً مراً شديداً، بعضهم يقول أنه أدي للدولة الإسلامية أجل الخدمات وأعظم الأعمال، وآخرون يذهبون إلى أنه كان عاملاً فعالا في هدم الدولة الأموية وتمزيق عري الوحدة الوطنية..

وإذن فنحن أمام ظاهرة عظيمة الخطورة، بعيدة الأثر في دراسة التاريخ الأموي وتقديمه على الوجه الأكمل والأحسن.

والمؤرخ المعاصر لا يستطيع أن يساير أحد المذهبين في الحجاج، دون أن يتلطف في درسهما لأن من حق قرائه عليه حين يعرض لهذين المذهبين أن يسألوه: فيم يختصم أنصار الحجاج وخصومه؟ وأن يطلبوا منه في لين ورفق أن يحدد لهم موضوع الخصومة، حتي يكون القارئ على بينه من أمره، وهدى في دراسته.

أما أن الحجاج كان شديدا ظالماً مستبدا، فليس في ذلك شك ولا ريب! وأما أنه أغرق في سياسة القمع والبطش إغراقاً نعتقد بحق أنه لم يكن له ما يبرره في كثير من الأحيان فهذا أيضاً ليس فيه شك ولا ريب.

الخوارج والحجاج

وما يقال في توحيده الناس على خليفة واحد وحكومة واحدة يقال في مقاومته للخوارج وبطشه بهم، والخوارج جماعة مزقوا الإسلام في عهدهم وحملوا لواء الثورة في وقت كان الإسلام أحوج ما يكون فيه إلى الوحدة لتمشي راياته إلى مختلف البلاد البعيدة، والأقوام السحيقة...

ولولا تمزيق الحجاج للخوارج لما كان بميسور الجيوش العربية أن تزحف إلى ما وراء النهر ولا أن تدوخ حدود الهند والصين، فهو الذي كان يبعث البعوث، ويحشد الجيوش، ويمد الجيوش العربية الزاحفة بالأموال والأسلحة والذخائر والإمدادات المتتابعة..

الحجاج ينفذ خطة مولاه

والحجاج إلى ذلك موظف أحسن كل الإحسان في خدمة أمية، ونجح النجاح كله في توطيد سلطان عبد الملك بن مروان، فإذا كان هناك أخطاء تكلفها، وأعمال أساء فيها، فيجب أن لا يغيب عن فهم القارئ أن الحجاج إنما كان يساير سياسة معينة، ويقرر خطة موضوعة قد يختلف معه عبد الملك بن مروان في طرق تنفيذها، ولكنه ما أنكرها، ولا يسعى لوضع حد لها، وإذن فالحجاج في الواقع كان عاملا ينفذ خطة مولاه، وموظفا أمينا لسياسة أمية في ذلك العهد العصيب من عصور الإمبراطورية العربية..

وشيء آخر أيضا، وهو أن المؤرخ إلى ذلك لا يستطيع أن ينكر الوضع الدقيق الذي كان فيه الحجاج، كانت البلاد العربية خصوصا العراق، تعج بالثورات، وتضطرب بالخصومات، وكان لابد لتوطيد ملك أمية من إخماد هذه الثورات، ووضع حد لهذه الخصومات، وكان الحجاج بين عاملين، إما أن يختار الحلم، أو يختار الشدة، وقد اختار الشطر الثاني، ذلك أن طبيعته الشديدة كانت أقرب إلى الثاني منها إلى الأول، وقد مضى في إقرار سياسته هذه مضيا كان فيه كثير من الأغراق، ومثله من التحيز والظلم والاستبداد.

ولكن العهد عهد ثورة، والثورة أبدا غماء الجبين قاسية شديدة ظالمة، فكان ذلك سبب ما تقرأه في تاريخه من ظلم وتعسف، وخروج من كل قواعد العدل والإنصاف...

الإسلام والخوارج

وعندما نبحث تاريخ الحجاج وعهد الحجاج تطالعنا هذه الصور الجاهمة، والثورات الداخلية، التي ذهبت بالمساعين من أبناء العربية، فاحتوتهم كل رقعة من أرض العراق، وفيأتهم الظلال الندية على ضفاف دجلة والفرات.

فالخوارج في ثوراتهم المتعددة، التي دامت زهاء أربعين سنة، قد أساؤوا إلى الإمبراطورية العربية إساءة عظيمة، أفنوا أنفسهم وقتلوا أميرهم، ووقفوا سدا منيعا في طريق الزحف العربي، والإصلاحات الإدارية، والأعمال العمرانية، وهم في دعوتهم لعقيدتهم السياسية الدينية كانوا على ضلال بين وخطأ مبين، لأن الإسلام في الواقع - كما كان في عهدهم - دين يحارب الفوضى والإغراق في الوطنية

والشعبية، وهو لا يزال حتى اليوم يقف موقفه هذا من دعاة كل مذهب، فيه إغراق، وفيه تجاوز على الحقوق الإنسانية العامة.

الانتصارات العربية

وإذا كان أول العصر الذي بسطنا القول فيه جاهما متلبدا، فإن آخره كان براقا زاهرا، فما كاد رجال الإمبراطورية العربية ينتهون من القضاء على الثورات الداخلية حتى نهدوا لإقرار الفتوح التي كان لابد للدولة العربية الناشئة أن تتكلفها، توطيدا لحدودها، وتعزيزا لمكانتها، وإحكاما لأطرافها البعيدة السحيقة، فانصرفت جيوش الشام للاستيلاء على ميراث الإمبراطورية البيزنطية الرومانية في آسيا وإفريقيا وأوروبا، وكان لها ما أرادت حيث قدرت دمشق في غضون ثمانين سنة على ضم أفريقيا جميعها وإسبانيا وسواحل إيطاليا وسلانيك وكريت وجزر الأرخبيل اليوناني، وكادت تفتح القسطنطينية، وتطوي بفتحها آخر صفحة من تاريخ الإمبراطورية البيزنطية.

ومضى مساعير العراق على وجههم يدوخون بلاد ما وراء النهر ويقتحمون الحصون والقلاع القائمة على حدود الهند والصين، فاقتحموا تلك الصروح العجيبة التي أقامها الترك والهنود والصينيون، وتابعوا زحوفهم في قلب آسيا فبلغوا في حقبة قصيرة بلاد الصين، فأوغلوا فيها لا تمر بهم مدينة قديمة من بعيد إلا زرفوا إليها، ونزلوا بها، ولا يتراءى لهم جبل إلا ركبوا غاربه، ولوحوا براياتهم من فوق قننه وهضباته، وما يطالعهم معبد للوثنية، إلا أزالوه وبنوا على أنقاضه مسجدا باسم الله رب هذه الإسلامية المتواضعة...

الارتباك السياسي في عهد معاوية وبعد عهده

وفاة يزيد بن معاوية

لن يستثر موت يزيد بن معاوية يوم انتقل إلى ربه في الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٤للهجرة شيئا من الحزن والأسى، وكان على التحقيق قد أثار كثيرا من الارتباك والقلق، لأن ولي العهد كان لا يزال شابا يافعا لم يتكلف في الحياة تجربة، ولا ترامت له في الأوساط العربية شهرة، خصوصا وهذه الأمصار كانت في أواخر عهد يزيد تعج بكثير من الخصومات، وتضطرب بألوان من حب التمرد والثورة، كان باديا على الوجوه ظاهرا على خطرات الألسن، ونظرات الأعين.

وتوفي يزيد بن معاوية في (حوارين) وهي قرية صغيرة نائية منعزلة، ولكنها على بعدها عن العمران والحضارة طريق يدفع إلى حمص، وطريق يدفع إلى دمشق، وقد أخذ يزيد على نفسه أن يلتمس الراحلة فيها، منذ كان وليا للعهد، وبعد أن استوى خليفة على الإمبراطورية العربية، محاولا أن ينعم بهذه الطمأنينة العذبة، التي لم يكن يجدها في قصر (الحضرة) في دمشق، فيقضي في حوارين – بين فترة وأخرى – أياما في صيد وعبث وشراب، وما يتصل مع هذا العبث والصيد من متع الحياة.

ولاية العهد

وكان يزيد قد عني بولاية العهد في عهده، متأثرا بذلك خطوات والده، ولم يترك الأقدار تدهمه، وتأخذ عليه كل سبيل، فلما ولي الخلافة أدار الأمر على وجهه وأطلق النظر في ولده، فإذا معاوية أكبرهم سنا، وأقلهم ذكاء، وإذا خالد وهو أحب ولده إليه، أرجحهم عقلا، وأمضاهم رأيا، ولكنه لا يزال طفلا، والعرب تكره مبايعة الأطفال والشباب، وتجد فيها نكرا كثيرا، فيضطر مكرها لمبايعة ولده الأكبر، ويذهب يتأتى لهذه البيعة بالحيلة، ويتكلف السياسة، فيوعز إلى أحد شعرائه أن يقول في ذلك شعرا، فيقول الشاعر:

وفي معاوية الباقي لنا خلف إذا نعيت ولم نسمع بمنعاك

الصحف والشعراء

وكان الشعراء في هذا العهد والعهود التي تلته تقوم بوظيفة الصحف عندنا اليوم، فإذا اعتزم الخليفة أمرا، أفضى إلى شاعر منهم به، فيقول في ذلك شعرا، وينتشر شعره بين الناس، ويصبح حديث المجالس وحلقات المساجد، ومطارح المنادمة، حتى إذا اعتمزم الخليفة إبرام غرضه، وإقرار فكرته، كان الناس على بينة من أمرهم، ومعرفة بما هو كائن واقع في مقبلات أيامهم، ويكون الخليفة في الوقت نفسه قد أخذ للأمر أهبته، وتأتي لغرضه، وبذلك في سبيله، واستعان بمن يصح الاستعانة بهم في سبيل ذلك.

أما كيف وفق يزيد لأخذ البيعة لابنه معاوية فهذا ما تجهله كتب التاريخ لا تعرض لهذه الناحية في كثير ولا قليل، ولكن الواقع أنه تمكن من حمل السوريين والأمصار العربية الباقية دون مكة طبعا على مبايعة ولي عهده، ونعلم أيضا أنه لما ذهب لمآبه، كانت مختلف هذه الأمصار تعلم أن الخليفة من بعده معاوية الثاني.

ولكن الذي لا شك فيه، أن هذه البيعة لم تكن قد أرضت الجميع، فقبيلة قيس مثلا، كانت تنكرها، لأنها لم تكن تطيق أن يلي الخلافة كرة ثانية خليفة يمت إلى قبيلة كلب بحبل من النسب – وكانت أم معاوية كلبية كأم يزيد – وكان بنو أمية وعلى رأسهم مروان بن الحكم ينكرون هذه البيعة أيضا، وكان مروان وهو شيخ بني أمية يكره أن يلي الخلافة شاب، وهو من تعلم أمية فضلا وسابقة وعلما..

ويظهر أن يزيدا قدم ولي عهده إلى قواد الأجناد عند توليه الخلافة سنة ٦٠ للهجرة، ثم بعث بالخبر إلى ولاته في الأمصار، وأمرهم بترويجه ونشره بين الناس، ولو طال عمر يزيد لتمكن على الأقل من توطيد مركز خلفه، ولكنه توفي قبل أن يتمكن من ذلك، فإذا معاوية الثاني يجابه عاصفة شديدة، وخصومة مستترة، وكرها لولايته لم يتورع الكثيرون عن إظهارها والعمل على ذيوعها وانتشارها..

ولم يكن معاوية الثاني في حوارين لما توفي يزيد، فقام بدفنه خالد ابنه وفي هذا ما يدل على أن ولي العهد لم يكن قريبا إلى قلب والده، فقد كان أبدا بعيدا عنه، وكان خالد أقرب إلى أبيه منه – وهو شقيق ولي العهد من أبيه لا من أمه

وأبيه – ولولا أن معاوية كان كبير أولاده ما قدمه، كما أن هناك ما يدل على أ، أم خالد كانت أقرب إلى قلب يزيد من باقي نسائه، وكانت أبدا معه بينما كانت نساؤه الباقيات بعيدات عنه.

ويختلف المؤرخون في حياة معاوية الثاني كل الاختلاف، يختلفون في السنة التي ولد فيها، ويختلفون في عمره يوم ولي الخلافة، ويختلفون في مدة حكمه، وفي ما قام به من أعمال، كما يختلفون في العهد الذي قضاه في الحكم، وفي الزمن الذي صرفه معتزلا عن الناس بعد تنازله عن الخلافة.

معاوية الثاني

أما المعلومات عن معاوية الثاني فضئيلة جدا، يقولون أنه ولد في (أذرعات) من أعمال حوران، وأما كيف نشأ وترعرع، فهذا ما لا تتحدث عنه كتب التاريخ شيئان وإن كان المؤرخون يختلفون كثيرا في عمره لما تولي الخلافة، فيذهب بعضهم إلى أنه كان في الثالثة عشرة، ويذهب البعض الآخر إلى أنه كان في الثانية والعشرين، ويقول آخرون أن الحقيقة بين هذين الرقمين، والرقم الأول بعيد عن الحقيقة، لأن العرب كانت تكره خلافة الأطفال والشباب، وإذا نظرنا إلى أن خالدا شقيقه الثاني، هو الذي تولي دفن والده والصلاة عليه، فمن المؤكد أنه لكي يتمكن من القيام بهذه الواجبات الدينية يجب أن يكون قد جاوز الخامسة عشر من العمر على الأقل، وما نعلمه عن ذكاء خالد ورجحان معارفه، في عهد والده، يستوجب أن يكون عمره في عهد والده لا يقل عن عشرين سنة، لأنه يستحيل أن تتم آدابه، ويظهر رجحان عقله ومضاء معارفه قبل هذا السن، وكان معاوية شقيقه أكبر منه بعدة سنوات، ونظن أن ابن عساكر أقرب إلى الصواب من سواء من المؤرخين حين يقول أن مولد معاوية كان سنة ٤٢ للهجرة، ووفاة يزيد كانت سنة ٦٤، فيكون عمره حين تولى الخلافة٢١ سنة، وإن كان الاعتقاد أنه كان أكبر من ذلك، ونذهب إلى أن عمره لما تولى الخلافة لم يكن يقل عن خمسة وعشرين عاما.

أما مدة خلافة معاوية فهذه أيضا من النقط الغامضة في التاريخ، فأقل المؤرخين يذهب إلى أنها لم تزد عن أربعين يوما، وأكثرهم يقول أنها طالت إلى ستة أشهر، بما فيها الأشهر التي قضاها في القصر محتجبا عن الناس بعد اعتزاله.

أسباب اعتزاله للخلافة

أما أسباب اعتزاله الخلافة فمجهولة، وإن كان مردها في اعتقادنا، ما أحسه من انقسام الأمصار العربية، ومبايعة أكثرها لعبد الله بن الزبير، وعدم اطمئنانه إلى إخلاص سوريا له، وتأييد بني أمية لشخصه، وكان إلى ذلك تقيا ورعا تفرغ لطلب الحديث زمنا، وكان له مذهب جميل وكان "خيرا من أبيه فيه عقل ودين" زاهد في الدنيا راغب في الآخرة، فأصبح والحالة هذه في حالة نفسية دقيقة مضطربة أفضت به أخيرا إلى التنازل عن الخلافة، واعتزال الناس...

الواقع أنه قلما يعرف تاريخ الخلافة رجلا ضاق بجلال السلطان وخطره كما ضاق به هذا الشاب، بل قلما يعرف التاريخ السياسي في الإسلام أميرا ضاق بالحياة ومتع الحياة كما ضاق بهما معاوية بن يزيد..

هل كان متشائما كأشد ما يكون التشاؤم؟ وهل كان حقا ينكر على جده وأبيه هذه السياسة التي راحا يجعلانها أمرا واقعا في خلافتيهما، وهل كان يرى لعلي بن أبي طالب ولذريته من الحق بالخلافة ما لم يكن يراه لأبيه وحده؟؟ هذا ما تحاول بعض المصادر التاريخية أن تقرره وتحققه في حياة هذا الخليفة البائس، وهذا كل ما كتب ورويه عنه، فليس هناك في الواقع من إخباره في كتب التاريخ ما يساعد على تصوير شخصيته، وحياته، وإيضاح الخفي الخفي من آرائه!!

أما كيف قضى الأيام الأولى من خلافته فهذا ما نجهله، وكلننا نعلم إنه لم يفعل في أول أمره شيئا وأنه أمر يوما فنودي بالشام "الصلاة جامعة" فاجتمع الناس في المسجد، وجاء معاوية بن يزيد مع جماعة من اتباعه فقام في الناس خطيبا، وقال: "إني ضعفت عن أمركم، فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر، فلم أجده، فابتغيت مثل ستة الشورى فلم أجدهم، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا من أحببتم"، ثم انصرف إلى قصر الحضرة بعد أن عهد بوكالة الدولة إلى

الضحاك بن قيس والوليد بن عتبة. واحتجب عن الناس حتى مات ...

وهناك من المؤرخين من يقول: إن بني أمية عرضوا عليه أن يولي أخاه خالدا..

فقال لهم: والله ما ذقت حلاوة خلافتكم فلا أتقلد وزرها.

ويقولون أنه صعد المنبر فخطب الناس قائلا:

خطبته الأخيرة

"أيها الناس، إن جدي معاوية نازع الأمر أهله ومن هو أحق به منه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو علي بن أبي طالب، وركب بكم ما تعملون حتى أتته منيته، فصار في قبره رهينا بذنوبه وأسيرا بخطاياه ثم تقلد أبي الأمر فكان غير أهل لذلك، وركب هواه، وأخلفه الأمل، وقصر به الأجل وصار في قبره رهينا بذنوبه، وأسيرا بجرمه".

ثم بكى حتى جرت دموعه على خديه وقال:

"إن من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه، وبئس منقلبه، وقد قتل عترة رسول الله، وأباح الحرم وخرب الكعبة، وما أنا بالمتقلد ولا بالمتحمل تبعاتكم فشأنكم وأمركم، والله لئن كانت الدنيا خيرا، فلقد نلنا منها حظا، ولئن كانت شرا فكى ذرية أبي سفيان ما أصابوا، ألا فليصل بالناس حسان بن مالك، وشاوروا في خلافتكم رحمكم الله". ثم دخل منزله وتغيب حتى مات بعد أيام.

موقف معاوية بن يزيد من قتل الحسين

وهنا يعرض المؤرخ المعاصر لموقف معاوية من جده وأبيه، فقد كان موقفه غريبا حقا، ولكنه لم يكن بعيدا عن التصديق، فقد كانت سياسة يزيد بن معاوية سياسة لا توطد ملكا ولا تؤيد عرشا، اتبع في عهده طريقا في كثير من أحراج الصدور، وإثارة البغضاء بين الطبقات المختلفة من الجماعة الإسلامية، فأيقظ العصبيات، واستفز الناس، ومضى في ذلك مضيا لم يتورع فيه، وإنما أغرق إغراقا فيه شذوذ كثير، وشر كبير.

يقول عبيد الله بن زياد، لما أنكر عليه بعضهم قتله الحسين بن علي، أنه إنما فعل ذلك بأمر يزيد ورأيه، وأنه لو لم يقتل الحسين لقتله يزيد.

ويقول يزيد: أن عبيد الله بن زياد قتل الحسين دون ما علمه ورأيه، فأي الرأيين والحالة هذه نصدق، ومن منهما كان أصدق من رفيقه؟؟

ولكن الذي لا شك فيه أن يزيد بن معاوية لم يأمر عامله على العراق بأسر الحسين، والقبض عليه وعلى جماعته وعدم قتله؛ ولو فعل لما تجرأ عبيد الله ابن زياد على أن يفعل ما فعل، وهو ما يدعو إلى الاعتقاد بأ، سكوت يزيد عن ذلك كان معناه أنه ترك لواليه الحرية في أن يفعل ما فعل، وأنه لم يقيده، ولم يمنعه ويحذره، وعندئذ يرى المؤرخ نفسه أمام ظاهرة تاريخية جديدة، وهي أن يزيدا مسؤول عن مقتل الحسين أكثر من غيره وسواه من الولاة والعمال...

وقد كانت حياة يزيد بن معاوية إلى ذلك جهادا عنيفا لا نتيجة له بين العاطفة والمصلحة، وبين السياسة والحزبية، وبين الجاهلية والإسلام، وقد تورط في هذا الجهاد العنيف إلى حد بعيد، فأفضى غليه تورطه بهذا بالفشل المريع الذي منيت به سياسته، وتعداه هذا الفشل إلى خلفائه من بعده، فلم يقم لهم شأن ولا استقام لهم ملك..

فلما استوى ولده معاوية خليفة من بعده، وجد البغضاء والفتن تغمر الأقطار الإسلامية من أقصاها إلى أدناها، وأحس في نفسه – وهو الرقيق العاطفة، الطيب القلب- عجزا عن القيام بأعباء ملك يحتاج في توطيده إلى دم كثير، وحروب عديدة، ففضل عندئذ اعتزال الأمر، وترك المسلمين وشأنهم يختارون من يشاؤون لخلافتهم.

ولو أن هذا الشاب البائس كان يريد الملك ويرغب في السلطان لما فكر في الاعتزال، ولو أنه كان حريصا على أن تظل الخلافة في بني سفيان، لولى أخاه مكانه، ولكنه رأى تجهم الوجوه، وانقلاب الرأي العام، وكيف أخذ يغلي الحقد في كل النفوس، ونسب كل ذلك لسياسة والده، فأراد أن يكفر عن أخطاء والده بظلم نفسه وظلم أهله من بعده، وكذلك كان..

وفي هذه السنة انتشر طاعون عظيم في الإمبراطورية العربية، وكان أشده في العراق، ومن المؤكد أنه أصيب به، لأن صحته كانت قد اعتلت فلم تستطع مقاومة المرض، وأما ما يذهب إليه بعض المؤرخين من أنهم دسوا له السم فخبر لا يستند على أساس من الصحة.

ويظهـر أن سـلطة معاويـة بـن يزيـد لم تتجـاوز سـوريا وفلسـطين على الأرجـح، وأما الأمصـار الإسـلامية الأخـرى كالعـراق والحجـاز ومـصر فـكان بعضهـا قـد بايـع ابـن الزبـير والبعـض الآخـر، كان لا يـزال بعيـدا عـن الاسـتقرار والانضـمام إلى شـيعة مـن الشـيع..

وبوفـاة معاويـة الثـاني بـدأت الفـتن في طـول الإمبراطوريـة وعرضهـا وقـد صـدق الشـاعر حـين قـال:

إني أرى فتنا تغلي مراجلها فالملك بعد أبي ليلى لمن غلبا.

****

obeikandl.com

موقف الأقطار الإسلامية بعد اعتزال معاوية

الصدمة لبني أمية

أما كيف استقبل أمراء الأجناد وسكان الأمصار هذا النبأ الغريب المفجع، فهو ما لا يعرض له المؤرخون في كثير ولا قليل.

لقد أصابت الصدمة أمية في الصميم، فإن إعادة الأمر شورى إلى المسلمين، لم يكن في مصلحتهم ولا في مصلحة أهل الشام، بعد أن وقفت بقية الأمصار العربية منهم موقف العداء، وبعد أن راح كل قطر من هذه الأقطار ينادي باستقلاله عنهم، ويندفع لتأييد ابن الزبير اندفاعا كان أقرب إلى العنت والنكاية ببني أمية منه إلى التأييد الخالص، لمبدأ يعتقد القوم بصحته ويؤمنون بفضله وفائدته.

وأما موقف الأقطار العربية، من معاوية بن يزيد فكان على نقيض موقفهم من بني أمية وأهل الشام، لقد رقت هذه الجماعات المختلفة لهذا الأمير البائس، ورثوا لحاله، وأشفقوا عليه، أما أمية فقد أنكرت عمله، وانتقدت سلوكه، وعدته مروقا عن مصلحة قومه، وتقليد شيعته لأن أمية لم توفق إلى الخلافة إلا بعد عناء ونصب ودم كثير، فذهابها عنهم والحالة هذه كان حدثا خطيرا تتعرض معه مصالحهم للانهيار والانحلال...

أما بقية الجماعات من غير أمية، فقد وجد زعماؤها في هذه الظاهرة بادرة حسنة، توطد مصالحهم، وتساعدهم على بلوغ أغراضهم، وتحقيق ما يطمعون إليه من جاه وسلطان.

لقد كان الموقف جاهما حقا، فإن تنازل معاوية الثاني عن الخلافة قد فتح الباب على مصراعيه، يقرءه كل من تحدثه نفسه بالملك والسلطان، فمن كان متثاقلا عن بيعة ابن الزبير، وجد في هذا التنازل ظاهرة توطد ملك ابن الزبير وتؤيده، ومن كان طامعا في الخلافة لنفسه، ألفي في الموقف مؤيدا لأغراضه، معززا لما يشاء ويريد.

وزاد في ارتباك الموقف، أن خالدا شقيق معاوية الثاني كان لا يزال شابا يضطرب في العشرين من عمره، والعرب كما قدمنا تكره أن تولي أمرها فتى صغيرا وغلاما حدثا، ولم يكن في بني سفيان سواه، فلم يبق والحالة هذه إلا أن

تفتش أمية عن أمير من غير بني سفيان، وهو ما أخذ يبحثه بعض رجالاتها، وما أخذ يفكر به مروان بن الحكم وولده...

موقف السوريون من الخلافة

ولم يكن السوريون يؤيدون عبد الله ابن الزبير، ولا كانوا يفكرون في مبايعته بالخلافة، إلا أن يحملوا على ذلك حملا، وإن كان أمر ابن الزبير قد استفحل وفشا في طول الحجاز وأطراف العربية، فقد بايعه الحجاز والعراق ومصر وفلسطين، وأما سورية فكانت لا تزال منقسمة على نفسها، وكانت دمشق تكره أن تذهب عاصمة الملك منها، فيحتويها هذا الوجوم الذي يحتوي كل مدينة لا تكون قلب العروبة، ولسانها المفكر، ولواءها الخفاق.

كان هذا رأي أكثرية السوريون، وإن كان بعضهم لا يرى كبير أمر في مبايعة ابن الزبير، بعد أن استفحل أمره وفشا، وكان هذا البعض يعتقد أن الأمر سيؤول إليه حتما، لاجتماع كلمة أكثر الأمصار العربية عليه ويرى من واجبه أن يعمل لابن الزبير لعله يعهد إليه بولاية الشام، أو يقاسمه سلطانه خصوصا وابن الزبير كان يكره أن يأتي إلى الشام ويفضل البقاء في الحجاز وبين الحرم...

كان هذا رأي الضحاك بن قيس القائم بأعمال الدولة بعهد من معاوية الثاني، الذي كلفه بتصريف أمور الدولة مع الوليد بن عتبة ريثما يتفق المسلمون على الخليفة الجديد...

وأما بنو أمية فكانوا يكرهون الضحاك، ويكرهون ابن الزبير، ويريدون أن تظل الخلافة فيهم، ولو كان في ذلك انقسام الدولة الإسلامية، واستقلال ابن الزبير بالأقطار العربية الأخرى...

زياد في العراق وخطبته ومبايعته

أما العراق فكان يتوق منذ أربعة أعوام للتخلص من بني أمية وعاملهم عبيد الله بن زياد، فلما مات يزيد وجد أهله الفرصة سانحة لتمزيق ما كان يصل بينهم وبين دمشق، وكان عبيد الله في البصرة لما بلغه موت يزيد واختلاف الناس في دمشق، فتحير في أمره، ولم يكن يجهل نقمة العراقيين عليه بعد موقعة كربلاء، ولكنه كان لا يزال مطمئنا إلى نجمه، فدعا أهل البصرة على الاجتماع في المسجد، ونادى "الصلاة جامعة" وكان ابن زياد في الخامسة والثلاثين من عمره في

هـذا العهـد، وكان يعلـم إلى هـذا أنـه سـيلاقي مـن أهـل البـصرة معارضـة شـديدة – وإن كانـت البـصرة في الواقـع أقـل انتصـارا لآل البيـت مـن الكوفـة – ولكنـه كان يعتمـد عـلى ذكائـه وحسـن سياسـته، ومـا لديـه مـن مـال الأمـة يبذلـه في سـبيل تألـف النـاس.

وافتتـح عبيـد اللـه الاجتـماع بكثـير مـن اللباقـة والاعتـدال خلافـا لعاداتـه السـابقة، وأشـار في خطبتـه إلى مـا قامـت بـه عائلتـه مـن خدمـات في العـراق عامـة والبـصرة خاصـة، وكيـف أنـه ابـن البـصرة، ولا يرغـب إلا أن يكـون منهـم ولهـم، يخدمهـم ويحافـظ عـلى مصالحهـم، وكيـف أن عـدد المقاتلـة في عهـده أصبـح عـشرة آلاف يتنـاول واحدهـم مـن بيـت المـال في السـنة مـا لا يقـل عـن ألـف درهـم. عـدا مـا كان يصيـب عائلاتهـم مـن المسـاعدات المختلفـة، ثـم أخبرهـم باختـلاف النـاس في دمشـق، وقـال "أنتـم اليـوم أكـثر النـاس عـددا وأوسـعهم فنـاء، فاختـاروا لأنفسـكم رجـلا ترضونـه لدينكـم وجماعتكـم فأنـا أول راض مـن رضيتمـوه، وإن اجتمـع أهـل الشـام، عـلى رجـل ترضونـه لدينكـم وجماعتكـم دخلتـم فيـما دخـل فيـه المسـلمون، وإن كرهتـم ذلـك كنتـم عـلى أحـد يليكـم حتـى تقضـوا حاجتكـم، فـما بكـم إلى أحـد مـن أهـل البلـدان حاجـة، ولا يسـتغني النـاس عنكـم".

وقـد سر أهـل البـصرة مـا أظهـره عبيـد اللـه مـن ضعـف واسـتكانة ورغبـة في الاتفـاق معهـم، فبايعـوه عـلى أن يـلي أمرهـم ريثـما يتفـق النـاس، ولا يبعـد أن يكـون عبيـد اللـه قـد دفـع بعـض أنصـاره إلى الدعـوة لـه حـين ينتهـي مـن خطبتـه، ولمـا كان أهـل البـصرة لم يتفقـوا عـلى أحـد منهـم، وكان عبيـد اللـه قـد أخذهـم مفاجئـة فقـد رضـوا بـه ريثـما يتفقـون فيـما بينهـم، وريثـما ينالـون مـن بيـت المـال مـا وعدهـم بـه مـن عطـاء ونـوال.

ويقول الطبري أن أهل البصرة قد انصرفوا من المسجد بعد البيعة وهم يقولون:

"لا يظن ابن مرجانة أننا ننقاد له في الجماعة والفرقة، كذب والله ثم وثبوا عليه".

وأقام عبيد الله أميرا عليهم غير كثير، حتى جعل سلطانه يضعف، ويأمر بالأمر فلا يقضي، ويرى الرأي فيرد عليه، ويأمر بحبس المخطئ فيحال بين أعوانه وبينه.

هروب بن زياد والولاة

وأحس عبيد الله بعد أيام بموقفه الخطر فرأى أن يهرب إلى الشام قبل أن يستفحل الأمر، وينالـه من أهل البصرة أذى أو نكر.

وأما أهل الكوفة فقد طردوا عاملهم وأجمعوا على عامر بن مسعود، وكذلك فعل أهل خراسان فإنهم أخرجوا عاملهم سالم شقيق عبيد الله بن زياد واضطروه إلى الهرب.

وكذلك كان حال الشام لا إمام عليه، والحجاز فيه ابن الزبير، أما العراق فقد رأينا شأن بن زياد فيه، حتى لقد خرج الناس من عنده يمسح وأحدهم يده بالحائط ويقول "أيظن ابن مرجانة إنا ننقاد له!" ويرسل ابن زياد في الوقت نفسه إلى أهل الكوفة من يطلب بيعتهم له، فيأبون عليه، فإذا علم أهل البصرة بآبائهم أظهروا النفرة منه وخلعوه، ودعا بعضهم إلى بيعة ابن الزبير، فأجاب إلى ذلك أكثرهم، وضعف أمر ابن زياد وخاف أهل البصرة على نفسه فاستجاب بالحرث بن قيس الأزدي ثم بمسعود بن عمرو سيد الأزد فأجاراه حتى هرب إلى الشام.

وعندئذ اختار أهل البصرة عبد الله بن الحرث بن نوفل واليا عليهم، وأقبلوا به إلى دار الإمارة وذلك في أول جمادي الأخرى من سنة ٦٤ للهجرة، كما اختار أهل الكوفة أميرا من بينهم، وكتبوا إلى عبد الله الزبير بالبيعة، فأرسل لهم العمال من عنده..

وفي هذه الفترة أيضا دخل أهل مصر في طاعة ابن الزبير، فلم يبق والحالة هذه خارجا عن بيعته إلا أهل الشام.

ولو مشى عبد الله بن الزبير إلى الشام لكانت له الخلافة حتما، ولكنه كان رجلا ضعيف الإيمان بنفسه، قليل الثقة بأنصاره فكان ضعفه هذا سببا في فشله...

الاضطراب السياسي

موقف الضحاك بن قيس

لما اعتزل معاوية بن يزيد الخلافة، كان الضحاك بن قيس يسيطر على دمشق بعد أن ألقى الوليد بن عقبة - زميله في الحكم والذي كان معاوية ابن يزيد قد ضمه إليه - في غياهب السجن، وكان الضحاك يهوي هوى ابن الزبير، ولكن هواه كان مثقلا بشيء كثير من الاستقلال الشخصي والأطماع الخاصة.

وكان الموقف في هذه الفترة - سنة ٦٤ للهجرة - قد تبدل قليلا، فانضمت فلسطين لابن الزبير بواسطة زفر بن الحارث القيسي نكاية ببني كلب الذين كانوا يؤيدون أبناء يزيد بن معاوية، لأن أم يزيد كلبية، وأم خالد بن يزيد كذلك.

وانضمت حمص أيضا إلى ابن الزبير وكان عاملها النعمان بن بشير، وكان حسان بن بجدل عامل يزيد ومعاوية الثاني على فلسطين قد غادر فلسطين إلى الأردن، ليكون قريبا من قبيلة بني كلب، وكان زعيما قويا يؤيد أبناء يزيد ولا يرى لسواهم في الخلافة حقا. وقد وفق إلى حمل أهل الأردن على مبايعته لبني أمية شرط أن يجنبهم هذين الغلامين، عبد الله وخالد أبناء يزيد لأنهم قالوا: أننا نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بغلام.

ولكن موقف الضحاك بن قيس المريب لم يكن يساعد على جلاء الموقف خصوصا بعد قدوم مروان بن الحكم شيخ بني أمية من المدينة إلى الشام مع أهله وولده، وبعد قدوم عبيد الله بن زياد من العراق، فأصبحت الضرورة والحالة هذه ملحة إلى معرفة رأي الضحاك ونواياه بصراحة، لأنه في الواقع كان يسيطر على الجند ومخازن السلاح وبيت المال، وبيده القوة والسطان.

وعندئذ رأي حسان بن بجدل أن يستبق الحوادث، وكان قد اكتسب تأييد بني كلب لبني أمية، خصوصا لخالد بن يزيد بن معاوية، فكتب إلى الضحاك من الأردن كتابا طلب منه أن يقرأه في المسجد في صلاة جامعة، وذكره بما أفضاه إليه بنو أمية من خير وسلطان، وانتقد فيه مبايعة ابن الزبير وتأييده، وهو الذي ناصب العداء الخلفاء الأمويين، وأحس الضحاك بالمكيدة فلم يقرأ الكتاب، ولكن رسول ابن بجدل كان يحمل نسخة ثانية منه، فلما رأى تثاقل الضحاك

عن قراءته، وقف بين الناس وقرأ كتاب حسان بن بجدل، فأحدث الكتاب ضجة عظيمة في المسجد، أيده قوم، وأنكره آخرون، وحدثت منازعة ومشاجرة بين أنصار أمية وأنصار ابن الزبير، فاتخذ الضحاك من هذا النزاع سببا لاستعمال الشدة فقبض على أنصار بني أمية، وزجهم في السجن، فأنقذهم أنصارهم من الأمويين.

وكذلك ظهر الانقسام في أهل الشام، وفشا في مختلف الأوساط والجماعات، فمنهم من كان يؤيد ابن الزبير لوثوقه بنجاحه، ومنهم من كان مواليا لأبناء يزيد عصبية لهم، ونكاية بخصومهم وأعدائهم.

مروان بن الحكم يؤيد ابن الزبير

وكان مروان بن الحكم نفسه، من مؤيدي ابن الزبير، ولم يكن تأييده إنكارا منه لحق نفسه عليه، أو زهدا منه في الخلافة والسلطان، وإنما كان سبب ذلك أنه وهو شيخ بني أمية، كان يقيم أكثر الوقت في المدينة لم يكن بينه وبين أهل الشام تآلف ولا مخالطة، وكان بنو أمية من سكان الشام ينكرون عليه تدخله في شؤونهم ويعدونه بعيدا عنهم، ثم أنه كان يجد في اختلاف الأمويين في الشام دليلا جديدا على أن الخلافة لن تكون لهم وأن ابن الزبير وقد استفحل أمره وفشا، لابد واصل لها، وغالب أهل الشام عليها...

ولعل هذا من الأسباب التي حملته أول الأمر على التفكير بالذهاب إلى ابن الزبير ومبايعته بالخلافة، واكتساب عطفه، والاطمئنان إلى صلاته وعطائه..

ظهور عبيد الله بن زياد

ولكن ظهور عبيد الله بن زياد، وهبوطه إلى دمشق هاربا من العراق، بدل الأمر في العاصمة الأموية، وكان ابن زياد في طريقه من العراق إلى دمشق قد بحث الموقف من جميع أطرافه، وأدار رأيه في مختلف وجوهه، فوجد أن الحياة لن تستقيم له مع غير بني أمية، وأنهم وحدهم الذين يقدرونه ويجلون مواهبه، ويذكرون خدماته وخدمات والده في سبيل سلطانهم وتوطيد ملكهم، كما ظهر له من اختلاف أهل الشام فيما بينهم صعوبة حملهم على البيعة لأبناء يزيد، وكلهم صغير، والعرب لا ترضى بالأمراء الأطفال.

فأجال عندئذ نظره في رجال أمية، لم يجد بينهم غير مروان بن الحكم فاعتمد الانضمام إليه وتأييده، واكتساب عطفه ومودته، وفتقت له الحيلة رأيا

يوفق بين الخصوم، ويجمع بين القلوب المتنافرة، فقرر أن يدعو لمروان بن الحكم ولخالد بالخلافة من بعده، ومروان رجل شيخ، لا يلبث أن يذهب إلى ربه ويكون خالد قد بلغ أشده، واستوى شابا يافعا، فلا يعود هناك سبب لإنكار العرب ببعيته، وتهربهم منها، فيجمع بين أنصار خالد وجماعة مروان، ويوحد في الوقت نفسه بين صفوف الجميع من أمية وأنصار أمية، أمام هذا الخطر الداهم الذي سيذهب بسلطانهم إذا ظلوا على تنافرهم وخصومتهم.

موافقة مروان ورضاه

ويحدثنا المؤرخون كيف تقبل مروان الخبر، لما تحدث به عبيد الله بن زياد، فقد ذهب عبيد الله يوبخ مروان بن الحكم على تفكيره في مبايعة ابن الزبير، ويظهر أن مروانا كان قد أفضى برغبته هذه إلى خاصته من بني أمية فانتشر الخبر بين الناس، وعلم به عبيد الله بن زياد، فأقبل نحو مروان عاتبا غاضبا وقال له:

- لقد استحييت لك ما تريد، وأنت كبير قريش وسيدها تصنع ما تصنع!!..

فقال مروان وقد امتلأ قلبه أملا:

- ما فات شيء، ما فات شيء..

فتحدث إليه عبيد الله برأيه، فرضى به مروان وأعجبه واطمأن له، وأخذ الاثنان يروجان له بين الأوساط الأموية في دمشق، فرضى به أهل اليمن وكلب وأحلافهم، نكاية بالضحاك بن قيس، وأنصاره من قيس وأحلافهم...

وأحس الضحاك بتبدل الرأي العام في دمشق، واتحاد بني أمية مع مروان بن الحكم، واجتماعهم ضده، فخشي العاقبة، خصوصا بعد حوادث المسجد وتعرض أحد بني كلب له بعصاه، واقتتال أنصاره والكلبيين بسبب ذلك، فبعث إلى بني أمية يعتذر لهم، وأنه لا يريد ما يكرهون، وأمرهم أن يكتبوا إلى حسان بن بجدل، ويكتب معهم ليسير من الأردن إلى الجابية، ويسيروا هم من دمشق، فيجتمعوا بالجابية، ويبايعوا الرجل الذي يصار إلى اختياره من بني أمية.

فرضي بنو أمية واتباعهم وكتبوا إلى حسان بالأمر، وسار الضحاك وبنو أمية إلى الجابية.

ولكن الضحاك عاد فعدل عن الذهاب إلى الجابية وهو في طريقها إليها، وسبب ذلك أن أنصاره أنكروا عليه هذا التقلب في موقفه وقالوا له:

"كنت تؤيد ابن الزبير وتطلب منا ذلك، والآن تذهب بنا إلى تأييد هذا الأعرابي من كلب – يريدون حسان بن بجدل – تستخلف ابن أخته خالد بن يزيد."

فقال الضحاك: فما الرأي؟

قالوا: الرأي أن تظهر ما كنا نكتم، وتدعو إلى ابن الزبير.

فانحاز الضحاك إلى رأي جماعته، وانقلب عن الجابية إلى مرج راهط، وكانت دمشق لا تزال بيده.

اجتماع الجابية والبيعة

ويظهر، أن الضحاك لم يكن قد استقر رأيه على أمر بشأن البيعة حتى الآن، فقد كان يؤيد بن الزبير لأن ابن الزبير كان أقرب على الخلافة من غيره، بعد أن دانت له أكثر الأمصار العربية، ولكنه لم يكن يجرأ على الدعوة لابن الزبير، وإن كان هواه معه، في وسط مضطرب ثائر كدمشق، فكظم ما بقلبه وأخذ يراوغ ويتحايل للوصول إلى غرضه، حتى أكرهه أصحابه على إظهار رأيه، والدعوة لابن الزبير.

وكان أنصار الأمويين قد اجتمعوا في الجابية يتشاورون ويقلبون وجوه الرأي فيما بينهم، وحسان بن بجدل يصلي بالناس، وقد ظلوا على حالهم هذا أربعين يوما استقر الرأي بعدها على المبايعة لمروان بن الحكم ثم لخالد بن يزيد، ثم لعمرو بن سعيد العاص، وانتهى المؤتمر في الثالث من ذي القعدة سنة ٤٦ للهجرة، وكانت هذه المبايعة المثلثة عبارة عن رغبة من القوم في إرضاء جميع الطامعين وأنصارهم، وعلى هذا اتحدت كلمة اليمنية من كلب...

ولكن الاعتراف رسميا بخلافة مروان لم يحصل إلا بعد شهرين من هذا التاريخ.

معركة مرج راهط

ولما علم الضحاك بن قيس وأنصاره بما صار عليه الاتفاق في مؤتمر الجابية، أدركوا أن الاصطدام بينهم وبين جماعة مروان أصبح أمرا واقعا، فبعث الضحاك يستنصر أحلافه من الزبيريين في حمص وفلسطين وقنسرين ويطلب منهم إمداده

بالرجال والسلاح، وكان الضحاك في (مرج الصقر) وقد ترك دمشق في حامية قليلة، فتمكن عبيد الله بن زياد مع بعض أنصار الأمويين من الوثوب على وكيل الضحاك فيها، وتغلبوا عليه، واستولوا على المدينة، وأخذوا يمدون مروان بن الحكم بالسلاح والجند، فوجد الضحاك نفسه بين نارين، ورأي من الحكمة أن يهاجم عدوه قبل أن يشتد ساعده، ويكثر أنصاره، فعاد إلى مرج راهط حيث وافاه مروان وجنده إليها، وحدثت المعركة التي هلك فيها الضحاك الذي قتله وهبه بن عبد الله والتي دامت عشرين يوما، تمزقت فيها قيس كل ممزق حتى لم تعد تظهر الابتسامة على قيس بعدها أبدا، لكثرة قتلاهم فيها، ولإغراق الكلبيين وأحلافهم في القتل والتفظيع بهم.

والواقع أنه لما خرج مروان إلى الجابية، ومعه حسان بن بجدل وكلب وأحلافها، وذهب الضحاك إلى (مرج الصقر) ظهر الخلاف جليا واضحا بين القبائل العربية..

كان مع مروان قبيلة كلب التي كانت منازلها بالأردن، وكان أكثر أنصاره من اليمنية "القبائل الجنوبية"، بينما كان أنصار الضحاك من بني بكر وقيس "من القبائل الشمالية" وكان بنو كلب كما قدمنا قد تزوج خلفاء أمية منهم، فكانوا والحالة هذه من أشد الناس نصرة لهم وتأييدا لدعوتهم.

ولقد كان من أثر هذا الصراع بين القبائل الجنوبية والشمالية أن امتد إلى أكثر الأمصار العربية، وكذلك أذكت هذه موقعة (مرج راهط) نار العصبية من جديد ليس في الشام فقط، بل في سائر الولايات الإسلامية، وخاصة في خراسان، فظهر العداء بين اليمنية والمضرية في صورة نزاع متواصل بين عرب الجنوب وعرب الشمال، وامتد لهيب العصبية إلى أقصى البلاد التي وصلت إليها الفتوح العربية...

ابن الزبير يبايع مروان الحكم خليفة

خطأ عبد الله بن الزبير

اشتهر مروان بن الحكم بين بني أمية، بأنه من أصحاب الرأي والفصاحة، وكيف يكون من أصحاب الرأي وقد مزق العرب في عهده، وكان لآرائه أكبر الأثر في تعجيل الفتنة وتمزيق العربية.

والواقع، ليس ما يهمنا أن نعرض لمروان بالتفصيل، فقد قاتل عليا في معركة الجمل، ورفع السيف في وجهه، وكان علي خليفة المسلمين، رضي مروان أم أنكر، وكان من حق مروان إذا كان من أصحاب الرأي حقا أن يعلم أن مثل هذا العمل ممزق للوحدة الإؤسلامية، وأنه نذير فتنة ما يعلم إلا الله ما يكون مصيرها على العرب والإسلام.

وتمضي الأيام في سبيلها وينتقل علي إلى ربه، ويتولى معاوية الخلافة، فيقبع مروان في داره، لا يحرك ساكنا إلا أن يكلفه معاوية عملا، حتى وفاة يزيد بن معاوية، ومقتل الحسين بن علي رضي الله عنه، فيأخذ عندئذ عبد الله بن الزبير بني أمية بالشدة، بعد أن استقل بالحجاز والعراق، وينذرهم بالخروج من الحجاز إلى الشام، فيغادر مروان الحجاز إلى دمشق، ويأتيها في فرصة موفقة حقا، وحين يكون القوم فيها على اختلاف فيمن يولونه الخلافة من بني أمية، وكذلك يكون عبد الله بن الزبير قد جعل مروانا خليفة، ومكنه من الملك والسلطان، وأعطاه الجند والسلاح يحاربه، ويستلب الملك منه.

وكذلك يشأ القدر أن يحظى عبد الله بن الزبير هذه الخطيئة التي أودت بملكه؛ فلولا إخراجه مروان وأهله من المدينة، لما آلت الخلافة إلى مروان وولده، ولظل أهل الشام يختلفون فيما بينهم هذا الاختلاف المفجع الذي مزقهم، وأثار حفيظة كل جماعة منهم على الأخرى..

والواقع ليس يهمنا أن نعرض لمروان بالتفصيل، فقد قاتل علياً في معركة الجمل، ورفع السيف في وجهه، وكان على خليفة المسلمين، رضي مروان أم أنكر، وكان من حق مروان إذا كان من أصحاب الرأي حقاً أن يعلم أن مثل هذا العمل ممزق للوحدة الإسلامية، وأنه نذير يفتنه ما يعلم إلا الله ما يكون مصيرها على العرب والإسلام.

وتمضي الأيام في سبيلها وينتقل على إلى ربه، ويتولي معاوية الخلافة، فيقبع مروان في داره، لا يحرك ساكناً إلا أن يكلفه معاوية عملاً، حتى وفاة يزيد بن معاوية، ومقتل الحسين بن على رضي الله عنه، فيأخذ عندئذ عبد الله بن الزبير بني أمية بالشدة، بعد أن استقل بالحجاز والعراق، وينذرهم بالخروج من الحجاز إلى الشام، فيغادر مروان الحجاز إلى دمشق، ويأتيها في فرصة موقفه حقاً، وحين يكون القوم فيها على اختلاف فيمن يولونه الخلافة من بني أمية، وكذلك يكون عبد الله بن الزبير قد عل مروان خليفة، ومكنه من الملك والسلطان، وإعطاء الجند والسلاح يحاربه، ويستلب الملك منه.

وكذلك يشأ القدران يخطي عبد الله بن الزبير هذه الخطيئة التي أودت بملكه، فلولا إخراجه مروان وأهله من المدينة، لما آلت الخلافة إلى مروان وولده، ولظل أهل الشام يختلفون فيما بينهم هذا الاختلاف المفجع الذي مزقهم، وآثار حفيظة كل جماعة منهم على الأخرى.

والواقع أنه لو كان عبد الله بن الزبير بعيد النظر، صادق الرأي لاحتبس مروان بن الحكم عنده، حتى يستقيم ملكه، وتتوطد بيعته، ولكنه دفع ثمن خطأه هذا غالباً وضحي نفسه وملكه.

نجاح مروان

من المؤكد أن معركة (مرجه راهط) مكنت مروانا من الحكم والسلطان، فبمقتل الضحاك وأنصاره أستتب الأمر لسلطان مروان في سورية كلها، وبايعه جند قنسرين بعد المعركة، وكان على قنسرين زفر بن الحارث فلما بلغته الهزيمة هرب فلحق بقرقيسيا وغلب عليها وتحصن بها، واجتمعت إليه قيس، وقد صحبه في هزيمته شابان من بني تميم فلما جاءت خيل مروان في طلبه، قال الشابان لزفر:

- انج بنفسك، فإنا نرد عنك الخيل.

فمضى وتركهما فقتلا وقال زفر في ذلك أبياتا تعد من أروح الشعر العربي:

أريني سلاحي لا أبا لك إنني ... أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أتاني عن مروان بالغيب أنه ... مقيد دمي أو قاطع من لسانيا
ففي العيس منجاة وفي الأرض مهرب ... إذا نحن رفعنا لهن المبانيا

فـلا تحسـبوني أن تغيبـت غافـلا ولا تفرحـوا أن جئتكـم بلقائيـا
فقـد ينبـت المرعـى على دمـن الثرى وتبقـى حـزازات النفوس كـما هيا
لعمـري لقـد أبقـت وقيعـة راهـط لحسـان صدعـا بيننـا متنابيـا
أيذهـب يـوم واحـد أن اسـأته يصالـح أيامـي وحسـن بلائيـا
فلا صلح حتى تشحط الخيـل بالقنا وتثـأر مـن نسـوان كلـب نسـائيا

كـما أنـه يمثـل في الوقـت نفسـه هـذا الحقـد الـذي أخـذ يغمـر كل قيـسي ضـد كلـب وأحلافهـا.

ولمـا بلـغ خـبر الهزيمـة الضحـاك بـن بشـير وهـو في حمـص، فـر هاربـا، فتبعـه بعـض أهلهـا وقتلـوه، وبايعـت حمـص لمـروان ونزلـت تحـت سـلطانه.

ودخـل مـروان الشـام في يـوم رائـع، واسـتقبله الأمويـون مـن أنصـاره وأحلافهـم اسـتقبالا رائعـا في طريقـه إلى قـصر الحـضرة، ابتهاجـا بنجاحهـم وفوزهـم، واشـتركت في هـذا الاسـتقبال جميـع عنـاصر المدينـة التـي كانـت تحـرص كل الحـرص عـلى أن تظـل دمشـق عاصمـة العربيـة وموطـن الحضـارة الإسـلامية.

الموقف في البلاد العربية

وأطلـق مـروان نظـره إلى الأمصـار العربيـة فـإذا بـه يجـد نفسـه مهـددا مـن ثلاثـة مواطـن: الحجـاز، والعـراق ومـصر، إذا اسـتثنينا الإمبراطوريـة البيزنطيـة التـي كانـت العـدو الأكـبر للإمبراطوريـة العربيـة.

وكان العـراق في هـذه الفـترة يعـج بالخصومـات والاضطرابـات الداخليـة، وكان أهله في شـاغل بأنفسـهم عـن غيرهـم وسـواهم، فلـم يكـن والحالـة هـذه مـن خطـر عاجـل منهـم، كـما أن الزبـير في مكـة لم يكـن يحـرك سـاكنا، وأمـا مـصر فكانـت مضطربـة غـير مسـتقرة، وكان حاكـم ابـن الزبـير فيهـا غـير موفـق في تهدئـة الحـال، وتأمـين السـلام..

فقـرر مـروان عندئـذ أ، يبـدأ بمـصر، كـما فعـل معاويـة بعـد معركـة صفـين، ولـكي يطمـئن مـن الغـارات الخارجيـة عـلى دمشـق وسـورية في غيابـه، أرسـل ابنـه محمـد إلى أطـراف العـراق وحـدوده حتـى لا يمكـن أحـدا مـن العراقيـين مـن اجتيـاز هـذه الحدود وتهديـد دمشـق، وأوصـاه بمراقبـة القيسـيين الذيـن كانـوا بعـد معركـة مـرج راهـط قـد غـادروا سـوريا وفلسـطين إلى حيـث اسـتقروا مـع زفـر بـن الحـارث في قرقيسـيا.

أول ظهور للحجاج

وأرسل في الوقت نفسه قوة إلى الحجاز لتهاجم ابن الزبير في أرضه وتشغله عن مهاجمة دمشق في غياب مروان في مصر، ولكن هذه الحملة الحجازية فشلت فشلا مريعا، ووقعت بين قوتين قوة خرجت إليها من مكة، وأخرى من البصرة، فتمزقت وتشتت رجالها، ولم ينج منها إلا القليل، وبينهم الحجاج بن يوسف الثقفي الذي أخذ بالظهور على مسرح السياسة.

وكان مروان في الوقت نفسه قد مشى إلى مصر، ومع كثير من الزعماء كحسان بن بجدل وعمرو بن سعيد الأشدق وخالد ولي العهد، وترك خلفه عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير ليتقدما بقوة من الجند إلى الحدود العراقية.

ومشى مروان بجيشه إلى مصر لطرد عبد الرحمن جحدم عامل عبد الله بن الزبير، وسار ابنه عبد العزيز في الجيش إلى (أيلة)، ونشط ابن جحدم لحربه، وأشار عليه بعض رجاله أن يحفر خندقا، فتم حفره في شهر واحد، وبعث بالجيوش والمراكب لحرب مروان وابنه، فانهزمت جيوشه ولم توفق، ولم ينفعه خندقه، ودخل مروان عين شمس، ثم الفسطاط في أول جمادي الأولى سنة ٦٥ للهجرة، وبني الدار البيضاء لتكون مقرا له وبايعه الناس إلا نفرا، ظنوا على تمسكهم ببيعة ابن الزبير فضرب أعناقهم، وكانوا ثمانين رجلا من المعافر، وقتل أيضا سيد لخم - الأكدر ابن حمام ابن عامر ابن صعب - فأتى ثلاثون ألفا من لخم وهم مدججون بالسلاح، ووقفوا بباب مروان ثائرين، فتوسط بعضهم في الصلح فانصرفوا، وصادف أن توفي عبد الله بن عمرو بن العاص في اليوم الذي قتل فيه الأكدر (١٥جمادى الآخرة سنة ٦٥) فلم يستطع القوم أن يخرجوا بجنازته لتألب الجند على مروان فدفن في داره.

عمرو بن الأشدق

وتشجع ابن الزبير في هذه الفترة، وبعد فشل الحملة المروانية على الحجاز، فأرسل قوة بقيادة شقيقه لاقتحام سوريا، ولكن مروان أرسل إليه قوة بقيادة عمرو بن الأشدق فردته فاشلا وعندئذ فكر مروان في الاستراحة قليلا فقد

أصبحت سوريا تحت حكمه، وخضعت له مصر، ودانت له فلسطين والأردن، ويقال أنه قرر البقاء في طبرية قليلا، ولكن دسائس عمرو بن الأشدق أثارت شكوكه فعاد إلى دمشق مسرعا...

ويظهر أن انتصار عمرو الأشدق على مصعب بن الزبير قد شجعه على التفكير جديا في أن يكون الخليفة بعد مروان، فذهب يتحدث بهذه الفكرة إلى بعض أخصائه، ويقول: إن مروان نفسه قد وعده بذلك، وكان مروان قد وعد عمرو ابن سعيد الأشدق بكثير من الأمور كما وعد غيره، وأما أنه وعده بالخلافة فهذا ما لا يعتقد به.

مسألة الخلافة

من المؤكد أن مروان بعد أن دانت له أكثر الأمصار العربية قد أخذ يفكر جديا بمسألة الخلافة، وبخالد بن يزيد ولي العهد، ذلك أن مروان كان كثير الولد، وكان كل ولده من ذوي المقدرة والنشاط، وقد وجد نفسه في أواخر أيامه يتحمل المشاق ليوطد الملك لغيره، فتحدث بذلك إلى حسان بن بجدل زعيم كلب، ونفض إليه نوايا عمرو بن سعيد الأشدق، وأعلن له عن رغبته في تولية عبد الملك ابنه مكانه، فأيده حسان في ذلك وشجعه عليه، فنقض عندئذ مروان أول بند من بنود مؤتمر الجابية، وعزل خالدا من ولاية العهد، وعين عبد الملك مكانه، ثم عبد العزيز ابنه من بعده... وكان عبيد الله بن زياد في هذه الفترة، يهيئ الجند ويستعد لاقتحام العراق، فلما انتهى مروان من ولاية العهد أصدر أمره إليه بالتقدم، وعينه حاكما لكل المنطقة، وكان أهل الكوفة قد جهزوا جيشا منهم، عليه اسم (جيش التوابين) لأنهم خذلوا الحسين لما قدم إليهم من مكة، وأرادوا في تسيير هذا الجيش التوبة عن تقصيرهم والتعويض عما فاتهم. ولكنهم لم يوفقوا في المعركة التي دارت بينهم وبين رجال عبد الله بن زياد ... ولم يعمر مروان كثيرا فقد مات بعد ستة أشهر من ولايته في رمضان سنة ٦٥ هجرية.

وكذلك نرى أن مروان بن الحكم لم يتقيد بمقررات مؤتمر (الجابية) الذي أقر الخلافة لمروان بن الحكم أولا، ثم لخالد بن يزيد ثم لسعيد بن العاص.

ويروي المؤرخون قصة تتعلق بأخلاق مروان وتصوره كل التصوير، فقد تزوج بعد البيعة (فاختة) أم خالد بن يزيد ولي عهده وفاقا لمقررات مؤتمر الجابية توطيدا مركزا، واكتسابا لعطف أنصار خالد من بني كلب وغيرهم، ولكنه لما أحس بتوطد ملكه، أخذ يحاول خلع خالد بن يزيد وتوليه ولديه مكانة، وللوصول إلى غرضه هذا، عمد إلي تحقير خالد ما كان إلى ذلك سبيل في مجالسه المختلفة أمام أهل الشام ليحملهم على النفرة منه، وعدم الاكتراث به، وقد حدث يوما أن دخل خالد على مروان، فشتمه مروان ووصفه بالحمق، فخجل خالد من نفسه، ودخل على أمه باكيا وافضي إليها بالخبر، فقالت له:

- لا يعرفن أحد ذلك منك، واسكت فأني أكفيكه.

فلما دخل عليها مروان في ليلة من الليالي وضعت على وجهة وسادة وجلست هي وجواريها عليها حتى مات، فلما علم بذلك عبد الملك بن مروان أراد قتلها، فأشير عليه بالعدول عن ذلك حتى لا يتحدث الناس أن امرأة قتلت أباه فيلحق به العار، وتناقل الخبر الشعراء في مختلف الامصار.

ومن الغريب أنه بظهور مروان وتغلبه على مناوئيه يظهر معه رجال لم تكن لهم سابقة مع معاوية ولا يزيد، كروح بن زنباع، وسفيان بن الابرد، والحجاج بن يوسف، لأن أكثر الأمراء الذين أيدوا سلطان معاوية وولده، كانوا قد هلكوا، ولم يبق منهم إلا عبيد الله بن زياد الذي كان سيلاقي حتفه قريبا.

الحكم على مروان:

أنكرنا حسن الإدارة على مروان فليس يعني هذا ننكر عليه الدهاء، وحسن السياسة ورجحان العقل فيما ظهر منه في عهد خلافته.

ومن المؤكد لدينا الآن أن حكمنا الأول يصدق عليه يوم كان كاتبا عند عثمان بن عفان فكان في هذا العهد أكثر انقيادا لشهواته وعواطفه منه إلى عقله، ولكن الأيام أحكمت توازنه، وغلبت عواطفه، فتبدل شخصا آخر بعد مرور ثلاثين سنة عن العهد الأول، وآية ذلك ما يرويه الكندي له، وكان مروان لما ولي الخلافة قد جاء إلى مصر فأقام بها شهرين، ثم جعل ولايتها إلى أبنه عبد العزيز، جعل صلاتها وخراجها فقال عبد العزيز:

- يا أمير المؤمنين، كيف المقام ببلد ليس به احد من بني أبي؟

فقال مروان: يا بني عمهم بإحسانك يكونوا كلهم بني أبيك، واجعل وجهك طلقا تصف لك مودتهم، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره، يكن عينا لك على غيره، وينقاد قومه إليك، وقد جعلت أخاك بشر مؤنسا، جعلت لك موسى بن نصير وزيرا ومشيرا، وما عليك يا بني أن تكون أميرا بأقصى الأرض، أليس ذلك أحسن من إغلاق بابك وخمولك في بيتك.

وكذلك نري كيف دبر مروان ابنه ليخرجه في الإدارة ويعلمه حكم الناس، جعل له موسى بن نصير وزيراً، وهو ما هو بعلمه وعقله وحسن سياسته، وفارق موسى أميره عبد العزيز بعد حين ذاهبا إلى افريقية والمغرب فقضى على البربر والرومان، ثم فتح الأندلس، أما بشر بن مروان مؤنس أخيه يوم تولي مصر، فقد تقلد البصرة والكوفة فكان الناس يدخلون عليه من غير استئذان، ليس على بابه حجاب ولا ستر. وقال عليه الشعراء:

ولو شاء بشر كان من دون بابه ... طماطم سود أو صقالبه حمر
ولكن بشراً أسهل الباب للتي ... يكون لبشر عندها الحمد والأجر
بعيد مراد العين ما رد طرفه ... حذار الغواشي باب دار ولا ستر

وقد استعمل عبد الملك بشراً وأمره بالشدة والغلظة على أهل المعصية وباللين على أهل الطاعة وخلف معه أربعة آلاف من أهل الشام منهم روح بن زنباع ورجاء بن حيوة الكندي، وهما من أمثل رجال بني أمية وأعملهم وأسوسهم، وكان من سياسة بشرا ومن سياسة دولته عامة إنه إذا ضرب البعث على أحد من جنده ثم وجده أخل بمركزه إقامة على كرسي ثم سمر يديه في الحائط ثم انتزع الكرسي من تحت رجليه فلا يزال يتخبط حتى يموت، وبهذه الشدة على المجندين لم تحدث أحداً نفسه بالهزيمة من الخدمة، وكان جيش أميه أطوع جيش عربي، ولا يستغربن أحد هذه الشدة فجزاء الفار من الجندية في يومنا هذا القتل.

رأينا عبد العزيز بن مروان أمير مصر وما كان من نصيحة أبيه له في سياسة الرؤساء ليسلس له قياد المرؤوسين، وكيف لقنه أبوه اقرب الطرق إلى استمالة القلوب، وكان عند حسن ظنه به، فجاء عبد العزيز نابغة في إدارته

عمرت مصر في أيامه عمرانا ليس مثله، وبني في حلوان الدور والمساجد وغيرها أحسن عمارة وأحكمها، وغرس نخلها وكرمها، وكان له ألف جفنة، كل يوم تنصب حول داره ومائة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على العجل إلى قبائل مصر.

ولي عبد العزيز مصر فكان خراجها وجبايتها إليه، فلم يوجد له مال يوم موته إلا سبعة آلاف دينار، وكانت ولايته على مصر عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوما، على حين لما مات عبد الملك بن عبد الملك بن مروان وكان عاملا على مصر ترك ثمانين مداً من الذهب، وتقدم إليه أبوه أن يعفي آثار عمه عبد العزيز لمكانة من ولاية العهد فاستبدل بالعمال عمالا وبالأصحاب أصحابا، ذلك لأن عبد العزيز لم يرضي أن ينزل عن ولاية العهد لأبن أخيه في حياته، وعبد العزيز هو والد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي العادل.

والخلاصة أن مروان كان فاحشا في أقواله، شديدا في معاملته، وكان كبير الرأس دقيق العنق، مضطرب الخلقة، طويل القامة.

ويقول المسعودي أنه كان رجلا بعيد الشعور، وكان اصدق من معاوية في معتقداته السياسية، فبينما كان معاوية يتخذ من قتل عثمان بن عفان حجة للوصول إلى أغراضه، كان مروان عظيم الإيمان بحق عثمان ومقتله ظلما.

وكان ذكيا فطنا، ملما بالحديث، متفرغا للبحث فيه، يقصده أهل المدينة لما كان فيها لأخذ رأيه.

ويقول أبن عساكر، أنه كان سيد شباب قريش، القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، الشديد في حدود الله.

عبد الله بن الزبير يدعو لنفسه للخلافة

لم يبدأ عبد الله بن الزبير بالدعوة لنفسه ألا بعد مقتل الحسين بن علي، ولولا مقتل حفيد محمد بن عبد الله، ما فكر أبن الزبير في الدعوة لنفسه والتفكير جديا بالخلافة وما يتبعها من ملك وسلطان.

وأذن فأن مبدأ دعوته لم يكن يرجع إلى ما قبل سنة ٦٣ للهجرة، وأن كان هناك من المؤرخين من يعتصم برواية بن عبد ربه كما جاء في العقد الفريد،

ويزعم أن عبد الله بن الزبير كان يفكر حقا في الخلافة، منذ أمره عثمان أبن عفان على داره، لأن استخلاف عثمان له دون أصحابه الذين كانوا معه كان في اعتقاده، يدل على كفاءته ومقدرته.

وأما أن عبد الله بن الزبير كان يسعي إلي الخلافة في عهد الأمام على فهو ما ننكره، ولا نؤمن به، لأنه ما كان لمثله، أن يطالب بها والإمام حي يرزق، وفي المسلمين من قريش من هو أفضل منه علما وأقرب إلى محمد نسبا.

ولكن أبن الزبير كان رجلا غريب الأطوار، كثير البخل، ضيق الصدر، محدود النظر ما نعرف في التاريخ أنه حاول أمر فوكد له وجوهه، ورتب له شؤونه، وسهل له مغاليقه، فهو في الواقع كان كثير الانحراف، كثير التحايل، مضطرب الرأي، ضعيف المعارف، قليل السياسية، معدوم الدهاء السياسي، اتته الدنيا منقادة إليه، فلم يوفق إلى استثمار الخلافة، ولا نجح في توطيد مركزه، وتقوية جماعته.

وما بالك بشخص يأتيه الخلافة دون أن يسعي إليها، وهو قابع في بيته، منزو في قلب الجزيرة ثم لا يحرك بنفسه ساكنا، لتوطيد ملكه، وتوحيد صفوفه جماعته، ولا يفكر في الزحف إلى الشام، لتعضيد أنصاره فيها، كالضحك بن قيس وجماعته من قيس، ويتركهم وشأنهم حتى يوفق مروان بن الحكم إلي تمزيق صفوفهم، والغلبة عليهم.

أما موقفة من الإمام على رضي الله عنه فكان موقفا غريبا حقا، أوقع بين أبيه وأصحاب أبيه وبين على بن أبي طالب، كما أوقع بين على ومعاوية، حتى قال فيه على يخاطب والده الزبير:

"لقد كنا نعدك من بني عبد المطلب حتى بلغ أبنك أبن السوء ففرق بيننا"

وإذا نظرنا إلي دقائق المصادر التاريخية التي بين أيدينا نري أن أبن الزبير لم يكن قوياً بنفسه، وإنما كان قويا بخالته عائشة أم المؤمنين وزوج رسول الله، كان يعيش في بيتها، ويسكن إليها، وكانت تحبه، وتحرص على إكرامه وتقوية نفوذه، وقد يكون هو الذي دفعها لمحاربة أمير المؤمنين على بن أبي طالب، بما كان له من الدالة عليها، حتى ليقال أنها كانت تسعي لتحويل الخلافة إليه، ولما سار

مـروان بـن الحكـم إلى طلحـة والزبـير قبيـل معركـة الجمـل قـال لهـا.

- على أيكما أسلم بالإمرة وأؤذن بالصلاة.

أرسلت عائشة رسولا يقول له:

- فليصل بالناس أبن أختي "تريد عبد الله بن الزبير"

فإذا انتقل على إلى رحمة الله، وافضت الخلافة إلى معاوية نري أبن الزبير، يسكن للأمر الواقع على غضاضة، وحقد عظيم، وسبب ذلك كما نعتقد أنه كان يعلم ضعفه وعجزه، وأنه ما يستطيع عملا والحسن والحسين حيان يرزقان..

وكان معاويـة يعلـم مـن أمـر أبـن الزبـير أكـثر مـا يعـرف هـو مـن نفسـه، فقربـه وعـززه وأفـضي إليـه بالعطـاء والنـوال، وأرسـله مـع البعـوث المختلفـة إلى القسـطنطينية تـارة وإلى غيرهـا أخـرى، وفيـما عـدا ذلـك نـراه منزويـا في بيتـه، لا يعـرض لشـئون السياسـة، ولا يتحـدث فيهـا إلا عـلى قـدر....

ولكنـه لمـا علـم بعـزم معاويـة عـلى بيعـه يزيـد مـن بعـده أخـذ يحـرض قريشـا عـلى المعارضـة، حتـى اضطـر معاويـة إلى تهديـده، فاسـتكان أمـام العاصفـة وظـل يوغـر صـدور النـاس في مكـة، ويحـرض الحسـين بـن عـلي عـلى المطالبـة بالخلافـة، حتـى مـشي الحسـين إلى الكوفـة، رغـم نصيحـة عبـد اللـه بـن عبـاس لـه أن لا يفعـل، وحتـى قتـل في معركـة كربـلاء، كـما هـو معلـوم ومشـهور.

وبمقتـل الحسـين ووفـاة شـقيه الحسـن مـن قبلـه، خـلا الجـو لابـن الزبـير، فأخـذ عندئـذ يدعـو لنفسـه، ولكـن موقـف عبـد اللـه بـن عبـاس منـه، وامتنـاع محمـد بـن الحنفيـة بـن عـلى بـن أبي طالـب عـن مبايعتـه، وكان قـد بايـع يزيـد بـن معاويـة وفـت في عضـده، وسـاعد عـلى ظهـور حـزب الكيسـانية بزعامـة المختـار بـن عبيـد الثقفـي الـذي ظهـر في الكوفـة بعـد مقتـل الحسـين.

قوة حسب عبد الله بن الزبير

ومـع ذلـك فقـد تمكـن أبـن الزبـير مـن تعزيـز قوتـه، ونـشر دعوتـه، ولم يكـن مـرد ذلـك حـب النـاس لـه، وأنمـا كرههـم لبني سـفيان وسياسـة يزيـد بـن معاوية التـي مزقت المسـلمين وجعلتهـم شـيعا، وخصوصـا مـا قـام بـه يزيـد مـن قتـل الحسـين، وتشـتيت

أبناء رسول الله، وغزو المدينة واقتحامها وذبح أهلها وحصارها ومعاملة ولاة الأمور الأمويين السيئة للعراقيين وغيرهم فقد استثمر أبن الزبير كل هذه الحوادث، وروج لها بين المسلمين وأذاعها في كل الأمصار، فكان له ما يرغبه من نقمة الشعوب الإسلامية على بني أمية وانقلابهم عليهم وعلى عمالهم، وتوليتهم وجههم الشخص الوحيد الذي كان يناوئهم، ولم يكن هذا الشخص غير عبد الله بن الزبير.

وكان أبن الزبير بعد مقتل الحسين قد أخذ يطلب البيعة ممن يثق بهم سرا، حتى ثار عليه أصحابه وطلبوا منه أظهار بيعته فقال لهم:

- لا تعجلوا.

وكان عمرو أبن سعيد أبن العاص يومئذ عامل مكة، وكان أشد شيء على أبن الزبير وعلى أصحابه، وكان مع شدته لا يقطع الحبل، فيداوي ويرفق، حتى عرف يزيد بن معاوية بنوايا أبن الزبير، وما قد جمع حوله في مكة، وكانت المدينة قد أخرجت عاملة في هذه الأثناء فقرر أن يرسل جندا من الشام لاقتحام المدينة، ومحاربة أبن الزبير، وقد وفق جنده إلى اقتحام المدينة ولم يوفق إلى اقتحام مكة إذا عاجله الموت.

وأخذ بعد وفاة يزيد يفشو أمر أبن اليزيد في مكة، وكاتبه أهل المدينة بالبيعة وقالوا:

- أما وقد هلك الحسين عليه السلام، فليس أحد ينازع أبن الزبير، واتسع نطاق البيعة لأبن الزبير بعد اعتزال معاوية الثاني وموته، فانظم إليه العراق واليمن ومصر، كما انضم له بعض أهل الشام أيضا.

موقف الخوارج

ونترك الآن أبن الزبير لشأنه، لنبحث موقف الخوارج منه ومن الحالة الإسلامية في البلاد العربية، بحيث يتصل البحث بعضه مع بعض، وتتلاحق الحوادث بنظامها التاريخي المطرد.

وكان أبن زياد قد اشتد على الخوارج في العراق عامة والبصرة خاصة اشتداد عظيما ونكل بهم، فاجتمعوا وتذاكروا، فقد رأيهم على الذهاب إلى أبن الزبير الذي ثار على أمية، وأرسل له يزيد جندا من أهل الشام لمحاربته، فلما قدموا على أبن

الزبير سر بمقدمهم، وأخبرهم أنه على مثل رأيهم، فقاتلوا مع أهل الشام حتى مات يزيد بن معاوية، وانصرف أهل الشام فعاد الخوارج إلى الاجتماع وقالوا:

- أن الذي صنعتم بالأمس، لغير رأي تقاتلون مع رجل لا تدرون لعله ليس على مثل رأيكم، وقد كان بالأمس يقاتلكم وأبوه، وينادي "ياثارات عثمان" فائتوه واسألوه عن عثمان فأن برئ منه كان وليكم، فقال : أتيتموني حين أردت القيام، ولكن روحوا العشية حتى أعلمكم، فانصرفوا، وبعث إلى أصحابه فجمعهم حوله بالسلاح، وجاءت الخوارج وأصحابه حوله وعلى رأسه وبأيديهم العمد فقال أبن الأزرق لأصحابه:

- أن الرجل قد أزمع خلافكم فتقدم إليه نافع بن الأزرق وعبيدة بن هلال فقال عبيدة بعد حمد الله:

- أما بعد فأن الله بعث محمداً يدعو إلى عبادته فدعا إلى ذلك، فأجابه المسلمون فعمل فيهم بكتاب الله حتى قضيه الله، واستخلف الناس أبا بكر، واستخلف أبو بكر عمر فكلاهما عملا بكتاب الله وسنة نبيه، ثم أن الناس استخلفوا عثمان فحمى الإحماء وآثر القربى، واستعمل الغنى، ورفع الدرة ووضع السوط، ومزق الكتاب وضرب منكر الجود، وآوي طريد رسول الله ، وضرب السابقين بالفضل وحرمهم، وأخذ في الله الذي أفاء عليهم فقسمه في فساق قريش ومجان العرب، فسارت إليه طائفة فقتلوه فنحن لهم أولياء، ومن أبن عفان وأوليائه براء، فما تقول أنت يا أبن الزبير؟

فقال : فهمت الذي ذكرت به رسول الله، فهو فوق ما ذكرت، وفوق ما وصفت، وفهمت ما ذكرت به أبا بكر وعمر وقد وفقت وأصبت، وفهمت الذي ذكرت به عثمان وأني لا أعلم مكان أحد من خلق الله اليوم أعلم بأبن عفان وأمره منى، كنت معه حيث نقم عليه، واستعتبوه فلم يدع شيئا ألا اعتبهم، ثم رجعوا إليه بكتاب يزعمون أنه كتبه، يأمر فيه بقتلهم فقال لهم: "ما كتبته فأن شئتم فهاتوا بينتكم فأن لم تكن حلفت لكم" فوالله ما جاؤوه بينه ولا استحلفوه ووثبوا عليه فقتلوه، وقد سمعت ما عبته به فليس كذلك بل هو لكل خير أهل، وأنا أشهدكم ومن حضرني أني ولا لأبن عفان وعدو أعدائه فبرئ الله منكم.

فنظر الخوارج بعضهم إلي بعض ثم انصرفوا وتفرقوا فسارت طائفة إلى البصرة، وطائفة إلى اليمامة فكان ممن سار إلى البصرة نافع بن الأزرق في أصحابه وقد أمروه عليهم فهاجم الخوارج البصرة في الوقت الذي كان أهلها قد وثبوا على أبن زياد، ولما تجرد الناس لحرب الخوارج وذهب نافع مع أصحابه إلى الأهواز، واستولوا عليها وأخذوا الفئ من أهلها ولم يزل الخوارج على رأي واحد، حتى ظهر من نافع القول بأكفار من قعد عن القتال من الخوارج، وأن من تخلف عنه لا نجاة له، وقال لأصحابه ذلك ودعاهم إلى البراءة منهم، وأنه لا يحل لهم مناكحتهم ولا أكل ذبائحهم، ولا يجوز قبول شهادتهم وأخذ علم الدين عنهم ولا يحل ميراثهم، ورأي قتل الأطفال، وأن جميع المسلمين كفار مثل كفار العرب لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل، فأجابه إلى ذلك بعضهم وفارقه بعضهم، واشتدت شوكة أبن الأزرق وكثرت جموعه، وهو في الأهواز فقرر المضي إلى البصرة برجاله لعله يوفق هذه المرة إلى الاستيلاء عليها واستباحة أهلها.

وكان أهل البصرة لما رأوا من أبن الأزرق هذه الآراء، وما يقوم به من اعتراض الناس وقتل الأطفال وكيف أن أمره يفشو ويتضخم ارتاعوا لذلك واجتمعوا إلى الأحنف بن قياس وقالوا له:

- ليس بيننا وبين العدو إلا ليلتان وسيرتهم ما تري.

فقال الأحنف:

-أن فعلتهم في مصركم أن ظفروا بكم كفعلتهم في سوادكم فجدوا في جهادعدوكم.

فاجتمع إليه عشرة آلاف مقاتل اختير لقيادتهم سليم أبن عبيس أبن كريز وكان دينا شجاعا فقاد الناس، وسار بهم حتى وصل (دولاب) وهناك قابله الخوارج فاقتتلوا قتالا شديدا حتى تكسرت الرماح وعقرت الخيل، وكثرت الجراح والقتلى، وتضاربوا بالسيوف والعمد، وحتى قتل أبن عبيس قائد البصريين وقتل نافع أبن الأزرق زعيم الخوارج، وفي أثناء المعركة جاءت إلى الخوارج نجدة فتمكنوا من كسر شوكة البصريين واجلوهم عن مواقفهم...

ولما بلغ خبر الهزيمة أهل البصرة فزعوا ولم يروا الأمر الخوارج ألا المهلب بن أبي صفرة، فعرضوا عليه ذلك فرضي شرط أن تكون له ولاية ما غلب عليه، وأن يعطي من بيت المال ما يقوي به من معه، وأن ينتخب من وجوه الناس وفرسانهم من يريد، فأجابوه إلى ذلك، فانتخب أهل الخبرة من البصريين وسار بهم إلى الخوارج، وكانوا قد اقتربوا من البصرة، فاقتتلوا قتالا شديدا، حتى كاد أهل البصرة ينهزمون لولا ثبات المهلب وقوة جأشه، بحيث تمكن البصريون من كسر الخوارج كسرة منكرة، وارتدوا معها إلى كرمان وجانب اصفهان.

وكتب المهلب بالنصر إلى أمير البصرة من قبل أبن الزبير الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة.

ومن الغريب حقا أننا لا نسمع لأبن الزبير وهو حاكم هذه الأمصار العربية رأيا في هذه الحوادث، ولا نري جنوده يعملون لتوطيد الأمن والسلام في هذه الأمصار التي دانت له، ولولا جهود أهل البصرة الخاصة، لتمكن الخوارج من المدينة وأعملوا السيف والدم فيها.

التوابون

ويجمل بنا الآن قبل الأخذ بحديث الخوارج بعد هذا التاريخ أن نعود لما نحن بسبيله من دراسة الحوادث التي وقعت بين سنتي ٤٤ و ٤٥ للهجرة، وأن نلم بأمر التوابين في الكوفة، وما كان من شأنهم وخبرهم حتى انهزامهم ومصرعهم..

لما قتل الحسين ورجع عبيد الله بن زياد من معسكره، أكبر الشيعة في الكوفة النكبة، واعتبروا أنفسهم مسئولين عنها لأنهم هم الذين زينوا للحسين على القدوم إليهم، فلما مشي إلى الكوفة تثاقلوا عن نصرته، فتخاطفته السيوف، وكان ما كان من مصرعه المريع، ومقتله المحزن.

وعندئذ أخذ الشيعة في الكوفة يجتمعون إلى خمسة نفر من رؤسائهم إلى سليمان بن صرد الخزاعي وكانت له صحبته، وإلى المسيب بن نجبة الفزاري وكان من أصحاب على، وإلى عبد الله بن سعد بن نفيل الازدي، وإلى عبد الله أبن والي التيمي، وإلى رفاعة بن شداد البجلي، وصار الاتفاق فيما بينهم على الطلب بدم الحسين، وأخذوا يكتبون إلى أنصارهم وأصحابهم بالتجهز والاستعداد والدعوة بين أشياعهم لهذا الأمر ولم يزل هذا

شأنهم حتى هلك يزيد بن معاوية، فجاء إلى سليمان بن صرد أصحابه فقالوا:

- قد هلك هذا الطاغية والأمر ضعيف فأن شئت وتنبأ على عمر بن حريث، وكان خليفة بن زياد على الكوفة، ثم أظهرنا الطلب بدم الحسين، وتتبعنا قتلته، ودعونا الناس إلى أهل البيت المستأثر عليهم، والمدفوعين عن حقهم.

فنصحهم سليمان بالتريث لأن قتلة الحسين إشراف البلد، وأنه قد نظر فيمن تبعه منهم، فرأي أنهم لو خرجوا لم يدركوا ثأرهم ولم يشفوا نفوسهم، وأن الحكمة تقضي ببث الدعوة واستجلاب الناس إليهم.

فعمل القوم بمشورته ففشا أمرهم، وازداد أنصارهم، وكان أهل الكوفة بعد هلاك يزيد قد أخرجوا عمر بن حريث، وبايعوا لأن الزبير، وبعدسته أشهر من ذلك، قدم المختار بن أبي عبيد الكوفة، وقدمها أيضا عبد الله بن يزيد الأنصاري أمير من قبل أبن الزبير، وأخذ المختار يدعو الناس إلى قتال قتلة الحسين، ويقول جئتكم من عند المهدي محمد بن الحنفية، وزيرا أمينا فرجع إليه طائفة من الشيعة، وكان يقول إنما يريد سليمان أن يخرج فيقتل نفسه ومن معه وليس له بصرة في الحرب، ولكن سليمان بن صرد وأصحابه كانوا يمضون في تجهيزهم لا يأبهون ولا يحفلون.

المختار

وهنا يظهر على مسرح السياسة العربية شخص جديد، جيد بكل ما في الكلمة من معني، باسل جري مشهور مجازف، ومتصلب الرأي كثير الطموح، شديد الحرص على سلطان يؤيد مركزه ويقوي من شخصيته بحيث يتكلف لذلك مختلف الأهوال وألوان الصعاب.

جاء المختار وهو في قريته خبر قدوم مسلم بن عقيل رسول الحسين بن على إلى الكوفة، فاقبل في مواليه، فخاف عبيد الله شره فضربه وحبسه، ثم أطلق سراحه بعد توسط عبد الله بن عمر الخطاب بشأنه مع يزيد، وكان عبد الله بن عمر قد تزوج أخت المختار.

فلما خرج المختار من السجن، وذلك بعد مقتل الحسين، ذهب إلى أبن الزبير في الحجاز، بعد أن علم أنه العائد بالبيت، وأنه يبايع نفسه سرا، وقد أدرك المختار أنه لم يبق غير أبن الزبير، بعد مقتل الحسين فذهب إليه لعله يرفق معه.

ويري المختار رجلا من العرب في الطريق فيسأله عن أبن الزبير فيليه بخبره فيقول له وهو يحاوره:

"أنه رجل العرب اليوم، وأن أتبعه دأبي أكفه أمر الناس، أن الفتنة أرعدت وأبرقت فإذا سمعت بمكان قد ظهرت به في عصابة من المسلمين أطلب بدم الشهيد المظلوم المقتول سيد المسلمين وأبن بنت سيد المرسلين، فوربك لأقتلن بقتلة عدة من قتل على دم يحيي بن زكريا" ومن هذا الحديث تظهر لنا ناحية من شخصية المختار، رجل حرب ودم ومعارك وزحوف، رجل على التحقيق كان يسعي لمصالحه الخاصة، قبل أن يسعي لمصلحة غيره، وما دعوته لفلان وفلان إلا شعارا كان يتخذه للوصول إلى غاياته، وتحقيق أغراضه.

ويأتي المختار أبن الزبير، فيكتم هذا عنه أمره، فيفارقه لمختار سنة كاملة، فيسأل عنه أبن الزبير فيقال له أنه بالطائف، وبينما هو في حديثه عنه، يدخل المختار المسجد فيطوف ويصلي ركعتين ويجلس غير بعيد عن أبن الزبير، ويأتيه معارفه يحدثونه ويحدثهم فيرسل له أبن الزبير عباس بن سهل بن مسعر، فيأتيه فيسأله عن حالة ويقول له:

- مثلك لا يغيب عن الذي اجتمع عليه الإشراف من قريش والأنصار وتثقيف، ولم يبق قبيلة ألا وقد أتاه زعيمها، فبايع هذا الرجل.

فيقول: أني أتيته العام الماضي وكتم عني خبره، فلما استغني عني، أحببت أن أريه أني مستغن عنه.

فقال له العباس: ألقه الليلة وأنا معك.

فأجابه إلى ذلك، ثم حضر عند الزبير بعد العتمة، فقال المختار:

- أبايعك على أن لا تقضي الأمور دوني، وعلى أن أكون أول داخل، وإذا ظهرت استعنت بي على أفضل عملك، فقال أبن الزبير، أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله، فقال المختار، وشر غلماني تبايعه على ذلك والله لا أبايعك أبدا إلا على ذلك، فبايعه فأقام عنده، وشهد معه قتال الحصين أبن نمير، وأبلي أحسن بلاء، وقاتلي أشد قتال، وكان أشد الناس على جند الشام.

فلما مات يزيد بن معاوية، وأطاع أهل العراق ابن الزبير، أقام عنده خمسة أشهر فلما رآه لا يستعمله، جعل لا يقدم عليه أحد من أهل الكوفة إلا سأله عن حال الناس، فأخبره بعضهم باتساق أهلها على طاعة أبن الزبير، إلا أن هناك طائفة لا تزال مترددة فلو كان لها زعيم لقلب الأرض بها.

ففطن المختار عندئذ إلى نفسه، وأدرك أنه لن يوافق مع أبن الزبير، ومازال لا يستعمله، فقرر السير نحو الكوفة، وسار إليها لا يري أحدا في طريقه من العرب ألا بشرة بالنصر القريب، والفتح العاجل، وانهيار الباطل، وتمزيق القتلة.

ولما وصل الكوفة واجتمع إليه ببعض أهلها أخذ يقول:

" أن مهدي بن الوصي بعثني إليكم أمينا ووزيرا وأميراَ، وأمرني بقتل الملحدين والطلب بدم أهل بيته، والدفع عن الضعفاء، فكونوا أول خلق الله إجابة".

فضربوا على يده، وبايعوه وبعث إلى الشيعة وقد اجتمعت عند سليمان أبن صرد وقال لهم نحو ذلك، وأن سليمان بن صرد ليس له بصر بالحرب ولا تجربة بالأمور، وإنما يريد أن يخرجكم ويقتلكم ويقتل نفسه، وأنا أعمل على مثال مثل لي، وأمر بين لي، أعين وليكم، واقتل عدوكم، واشفي صدوركم، فاسمعوا قولي وأطيعوا أمري، ومازال بهذا ونحوه حتى استمال طائفة من الشيعة، صاروا يختلفون إليه، ويعظمونه، وعظماء الشيعة مع سليمان لا يعدلون به أحد.

ولما خرج سليمان بن صرد مع أنصاره من الشيعة (التوابين) ظل المختار في الكوفة، حتى قبض عليه بعض أهلها وسجنوه خوفا من شره، ولكثرة ما بلغهم عن لسانه من رغبة بالوثوب والاستيلاء على الكوفة، ويقول بعض المؤرخين غير ذلك في قدوم المختار إلى الكوفة، أو أنه قدم إليها بالاتفاق مع أبن الزبير لحمل الشيعة فيها على مقاتلة أهل الشام.

مسير التوابين

وفي ربيع الأول من سنة ٤٥ للهجرة، خرج سليمان بن صرد في وجوه أصحابه من التوابين، بعد أن تحالفوا على بذل نفوسهم وأموالهم، في الأخذ بثأره ومقاتلة قتلته، وإقرار الحق في نصابه بتنصيب رجل من أهل البيت، فوصلوا إلى عين

الوردة في ربيع الآخر من السنة نفسها حيث اشتبكوا مع جند عبيد الله بن زياد الذي كان مروان بن الحكم قد أرسله على رأس جيش للاستيلاء على العراق وأقرأه عبد الملك بن مروان على ذلك، ولما تلاقي الجيشان انهزم الشيعة بعد قتال عنيف، وكان جند عبد الله بن زياد فيه أشد عددا، وأمضي سلاحا، وقتل رئيسهم سليمان بن صرد، وعاد المنهزمون إلى الكوفة، فوجدوا المختار في السجن، فكتب إليهم يمينهم بالنصر ويعرفهم أن الذي أمره محمد بن على المعروف، بأبن الحنيفة بطلب الثأر، فقرأوا كتابه وسروا به، وبعثوا إليه يقولون "أننا بحيث يسرك، فأن شئت أن نأتيك ونخرجك من الحبس فعلنا.

فقال لهم: أني أخرج في أيامي هذه:

وتدخل عبد الله بن عمر بن الخطاب بشأنه أيضا، فأفرج عنه، فعاد إلى داره وأخذ يستعيد للثورة، والشيعة تختلف إليه، وقد اتفقوا على الرضا به ولم يزل أصحابه يكثرون، وأمره يقوي حتى عزل أبن الزبير عامله على الكوفة واستعمل عبد الله بهن مطيع فوثب عندئذ المختار برجاله على الكوفة وأميرها الجديد فانتزعها منه ونادي بنفسه أميرا عليها باسم محمد بن الحنفية.

محمد بن الحنفية

والواقع أن رفض محمد بن على بن أبي طالب الملقب بابن الحنفية مبايعة ابن الزبير، ساعد المختار على تكوين حزب شيعي جديد، وهو حزب الكيسانية وكانت الشيعة في أول الأمر تدعو لأبناء الحسين، ودون غيرهم فلما ظهر المختار أخذ يدعو لمحمد بن الحنفية، وأن كان المؤرخون يختلفون في موقف أبن الحنفية من هذه الدعوة الجديدة اختلافا عظيما، فبعضهم يقول أنه أيدها، وآخرون يقولون أنه أباها، لأنه لم يكن يثق بأهل الكوفة الذين خذلوا أباه وأخويه حيث ذكر المقريزي في تكابه (المقفي الكبير) ليدن أن فريقا من أهل الشام وعلى رأسهم مسلم بن عقبة المرئ ساروا في الحجاز لقتل أنصار أبن الزبير، وأن فريقا آخر ممن شايعوا أبن الزبير في الكوفة وعلى رأسهم عبد الله أبن مطيع عامل أبن الزبير على الكوفة وعبد الله أبن عمر بن الخطاب إلى محمد بن الحنفية فقالوا له، أخرج بنا نقاتل يزيد

فقال : على ماذا أقاتله ولم أخعله ؟

فقالوا : أنه كفر .. وشرب الخمر ... فقال لهم : ألا تتقون الله هل رآه أحد منكم يفعل ما تذكرون، وقد صحبته أكثر مما صحبتموه فما رأيت به سواء.

قالوا: أنه لم يكن يطلعك على فعله.

قال : افأطلعكم أنتم عليه؟

فخافوا أن يثبط قعودة الناس عن الخروج، فعرضوا عليه أن يبايعون أذكره أن يبايع أبن الزبير.

فقال: لست أقاتل تابعا أو متبوعا.

قالوا: فقد قاتلت مع أبيك؟.

قال: وأين مثل أبي اليوم !

فأخرجوه كارها ومعه بنوه مسلحين، فحمل أهل الشام عليه فضارب بنوه دونه فقتل أبنه القاسم محمد، وضرب أبو هاشم قاتل أخيه فقتله، ثم خرج أبن الحنفية إلى مكة من فوره.

الكيسانية والمختارية

وهناك اختلاف بين المؤرخين في نسبة الطائفة الكيسانية، فبعضهم ينسبها إلى كيسان مولي على بن أبي طالب الذي قتل في معركة صفين سنة٣٧ هـ وغيرهم ينسب هذه الفرقة إلى المختار بن عبيد.

وهناك كثير من المؤرخين يفرقون بين كيسان والمختار، فيقول أبن حزم: أن هناك شخصين مختلفين هما المختارين أبي عبيد، وكيسان أبو عمره.

ويقول الشهرستاني أن هناك طائفتين مختلفين، الكيسانية والمختارية، الأولي تنسب إلى كيسان مولي على، والثانية إلى المختار بن أبي عبيد.

وهنا ننتقل إلى الكيسانية أو إلى هذا المذهب الجديد الذي خلقه المختار تنفيذا لمآربه، والذي نعتقد أن أبن الحنفية لم يكن علي علم به، ولا رأي له فيه، ويقول المستشرق (فان فلوتن) أن عقيدة السبئية قد بنيت على الرأي القديم القائل بتجسد الألوهية وأن هذا المذهب يختلف عن حزب الكيسانية الذي ظهر في بادئ أمره في الكوفة تحت زعامة المختار وعلى الرغم من عقيدتهم الأصلية وهو القول بأمامة محمد بن الحنفية

بعد على أبيه، فأن الكيسانية يغالون في اعتقادهم بإحاطة الائمة بالعلوم الآلهية، وأن محمد بن الحنفية الإمام قد أحاط بالعلوم كلها، وأن أخويه الحسن والحسين قد عهدا إليه بالأسرار، وبعلم التأويل والباطن، وقد انتهي اعتقاد الكيسانية بوجوب أنفراد الأمام بتأويل الشريعة إلى القول بضرورة طاعته لأن طاعته طاعة القانون الآلهي.

ويعتقد الكيسانية في البدء، بمعني أن الله سبحانه وتعالي بغير ما أراد، وفي تناسخ الأرواح، وهو خروج الروح من جسدها وحلولها في جسد آخر، وفي الرجعة، أي رجعة محمد بن الحنفية، كما يعتقدون أيضا بنبوة على والحسن والحسين وأبن الحنفية، وأن كانوا يختلفون في أن أبن الحنفية ورث الإمامة مباشرة من على، أو عن طريق أخويه الحسن والحسين.

وكذلك نري كيف بث المختار هذه العقائد الغريبة في الكوفة، وكيف وجد أرضا خصبة لها، فتعلق به الناس والتف حوله جيش التوابين بعد رجوعه إلى الكوفة، فلما أحس بقولته، نهض في الكوفة كما قدمنا، ووثب على عامل أبن الزبير فطرده منها، واستولي على دار الإمارة، وأخذ يتبع قتلة الحسين وأنصارهم وأعوانهم لا يبقي على أحد منهم ولا يذر.

في مكان آخر كيف أن مروان بن الحكم لما استوثق له أمر الشام، بعث جيشين أحدهما إلى الحجاز لمحاربة أبن الزبير، وقد غلبه أبن الزبير وشرد جنده، والجيش الآخر إلى العراق، مع عبيد الله بن زياد، وقد ذكرنا ما كان من أمره وأمر التوابين وكيف وفق إلى كسرهم وتشتيتهم، وقتل كبارهم وزعمائهم وكيف عاد الباقون إلى الكوفة وانضموا إلى المختار، وكان مروان بن الحكم قد جعل لابن زياد ما غلب عليه وأمره أن ينهب الكوفة ثلاثا فلما انتهي ابن زياد من أمر التوابين احتبس في الجزيرة، وبها جماعة من قيس مع زفرين الحرث على طاعة أبن الزبير فلم يزل عبيد الله منشغلا عن العراق نحو سنة، وفي هذه الأثناء توفي مروان وولي بعده أبنه عبد الملك بن مروان، فاقر أبن زياد على ما كان أبوه ولاه، وأمره بالجد في امره، فلما لم يتمكن من زفر ومن معه، أقبل على الموصل فكتب عبد الرحمن بن سعيد عامل المختار إلى المختار يخبره بدخول أبن

زياد أرض الموصل، وأنها قد تنحي عن الموصل إلى تكريت.

فدعا عندئذ المختار يزيد بن أنس الأسدي وأمره أن يسير إلى الموصل فينزل بادنئ أرضها حتى يمده بالجنود فقال له يزيد:

خلني انتخب ثلاثة آلاف فارس، وخلني مما توجهني إليه، فأن احتجت كتبت إليك استمدك.

فأجابه المختار إلى ذلك، فانتخب ثلاثة آلاف، وسار عن الكوفة ومعه المختار والناس يشيعونه.

وبلغ أبن زياد قدوم جند المختار عليه فبعث إليهم قوة أكثر عددا وأمضي سلاحا، فالتقوا بجند يزيد في باقلي وكان يزيد مريضا فحمل على سرير ووضع بين الرجال، وهو يقول:

- قاتلوا عن أميركم أن شئتم أو فروا عنه.

واقتتل الجيشان عند فلق الصح يوم عرفة واشتد قتالهم إلى ارتفاع الضحى، فانهزم أهل الشام وأخذ عسكرهم، فلم يسر المنهزمون وأن غير ساعة حتى لقيهم عند الله بن جملة في ثلاثة آلاف من جند عبيد الله بن زياد، فرد معه المنهزمين وعادت المعركة فكسر الكوفيون أهل الشام، وقتلوا أميرهم عبد الله بن جملة، وأسروا منهم ثلاثمائة أسير، فأمر يزيد بقتلهم، وهو بآخر رمق فقتلوا جميعهم، وتوفي يزيد في يومه فدفنه أصحابه.

وبلغ جيش الكوفة خبر قدوم أبن زياد عليهم في قوة عظيمة، فقر رأيهم بعد التشاور على الرجوع فلما علم المختار بذلك، أرسل إليهم إبراهيم أبن الاشتر، وأمره على سبعة آلاف، وقال له سر فإذا لقيت جيش يزيد أبن أنس فأنت الأمير عليهم، فارددهم معك حتى تلقي بن زياد وأصحابه فتناجزهم.

وما كاد الجيش يخرج من الكوفة حتى ثار بعض زعمائهم على المختار، فأرسل في طلب إبراهيم الاشتر، وأخذ في الوقت نفسه يتريث في مجابهة القوم ويمينهم، حتى يصل الاشتر ورجاله، فلما وصلوا اطلقهم على الثأرين فقتلوهم شر قتلة، وتتبع المختار كل من كان في الجند الذي سار لقتال الحسن فقلتهم، وخرج أشراف الناس فلحقوا بالبصرة هاربين خائفين.

ولما انتهي المختار من إخماد الثورة عليه في الكوفة، أرسل إبراهيم بن الاشتر لقتال عبيد الله بن زياد، فسار إبراهيم حتى لقي ابن زياد ومن معه من أهل الشام على نهار الخازر، فدارت الدائرة على ابن زياد، وقتل وهو وكثير من إشراف أهل الشام، وأنفذ أبن الاشتر رأسه ومعه رؤوس قواده إلى المختار.

وبانتصار المختار على أبن زياد فشا أمره، وازدادت قوته، وكثر تعلق الشيعة به.

ورأي أبن الزبير كيف استفحل أمر المختار، فقرر أن يبعثه بشقيقه مصعب بن الزبير، فاستعمله على العراق، فأتي البصرة مثلما ودخل المسجد، وصعد المنبر، ثم حسر لثامه فعرفوه، ثم قام فحمد الله وأثني عليه ثم قال:

"بسم الله الرحمن الرحيم، طسم تلك آيات الكتاب المبين، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون، إلى قوله من المفسدين"، فأشار بيده نحو الشام، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين وأشار نحو الحجاز.

ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون وأشار نحو الكوفة.

ثم قال: يا أهل البصرة بلغني أنكم تلقبون أمراءكم وقد لقيت نفسي بالجزار...

مصعب والمختار

وما كاد يصل مصعب بن الزبير إلى البصرة حتى أخذ يتجهز للمختار وحربه وكان أول ما بدأ به أن أرسل المهلب إليه، وهو عامل بن الزبير على فارس، فأقبل عليه في جموع كثيرة وأموال عظيمة، فسار بهم مصعب نحو الكوفة، فتلقاه المختار بقواته، وقاتلهم قتالا شديدا، ولكنه لم يتمكن من الصمود أمامهم، فانهزم إلى القصر في الكوفة وكان قد حصنه فحاصره مصعب ومنع عنه وعن أصحابه الماء فعاد المختار يقاتل مع جماعة من أصحابه حتى قتل.

وكتب مصعب إلى إبراهيم بن الاشتر يدعوه إليه ويقول له:

"أن أطعتني فلك الشام وأعنه الخيل، وما غلبت عليه من أرض المغرب ما دام لآل الزبير سلطان، وأعطاه عهد الله على ذلك".

وكتب إليه عبد الملك بن مروان بمثل ذلك، فاستشار الاشتر أصحابه فاختلفوا، ثم أقبل الاشتر على مصعب ورضي بشروطه.

وبمقتل المختار دان العراق لابن الزبير ولم يبق أمامه من سلطان سوي سلطان عبد الملك بن مروان.

المختار

وبعد، فهل كان المختار صادقا في دعوته، مؤمنا بما يدعو إليه؟

هذا سؤال لا يبرح كثير من المؤرخين يتداولونه فيما بينهم أخذا وردا وجيئة وذهابا، والرأي الذي يكاد ينعقد عليه الإجماع لا نقول إجماع المؤرخين وإنما أجماع الذين يتلطفون في دراسة هذه الفترة العصبية من تاريخ الإسلام، هو أن المختار إنما كان يسعي لنفسه وأمجاده الشخصية.

ويحدثنا أبن الأثير فينقل لنا كلاما للمختار بعد أن حاصره مصعب في قصر الكوفة، وأحس بانقطاع أمله وقلة عدده وانفراط الناس من حوله، وحين اعتزم الخروج لمقاتلة جند مصعب في تسعة عشر من رجاله، فيقول لأحد أنصاره.

- ماذا تري ؟

فيقول له هذا: ماذا تري أنت !

فيقول المختار : ويحك يا أحمق إنما أنا رجل من العرب رأيت أبن الزبير وقد وثب بالحجاز، ورأيت أبن نجده الخارجي وثب باليمامة ومروان بالشام، وكنت فيها كأحدهم، إلا أني قد طلبت بثأر أهل البيت إذا نامت عنه العرب.

فإذا صح هذا القول عن المختار فهو برهان قاطع علي أنه كان يطلب الأمر لنفسه، وأنه لو بلغه، لما تكلف تأمير أحد من آل البيت عليه.

ولما قتل المختار كان عمره سبعا وستين سنة، وكان قتلة لأربع عشرة خلت من رمضان سنة سبع وستين.